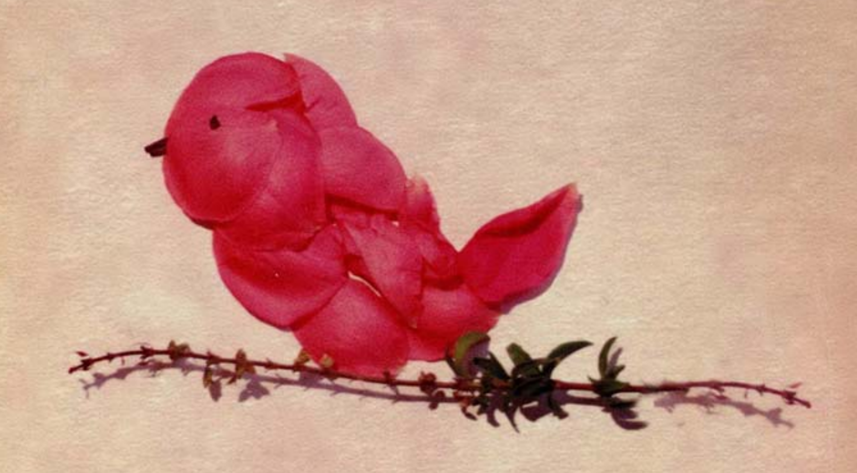
عبدالله المغلوث

تغريد

في السعادة والتفاؤل والأمل







عبدالله المغلوث

تغريدٌ... في السعادة والتفاؤل والأمل



تغريدٌ... في السعادة والتفاؤل والأمل

عبدالله المغلوث

الكتاب: **تغريدٌ... في السعادة والتفاؤل والأمل**
المؤلف: **عبدالله المغلوث**

التصنيف: **مجتمع**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطّبعة الأولى: مارس (آذار) 2012

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-614-429-002-6

الغلاف: **فيصل المغلوث**
@19oo
رســوم: **أماني محمد الحتيرشي**
@AmaniMohM

Madarek مــدارك
Madarek Publishing House دار مــدارك للنشــر
www.mdrek.com - read@mdrek.com

دبي:
مجمع إعمار للأعمال، شارع الشيخ زايد، دبي - الإمارات العربية المتحدة
P. O. Box: 333577 Dubai - UAE
Tel.: 00971 4 361 5177 - Fax: 00971 4 361 5178
بيروت:
فرن الشباك، الطريق العام، سنتر غاريوس، بيروت - لبنان
P. O. Box: 50074 Forn Elchebbak - Lebanon
Tel.: 00961 1 282075 - Fax: 00961 1 282074

المحتويات

مُقدّمة

شعرتُ بألم مضنٍ في الرابع من كانون الأول/ديسمبر عام 2010 عندما تعرّضتُ للإيقاف عن الكتابة الصحفية؛ إثر مقالة نشرتُها بعنوان: «كم عمر أصغر مسؤول لدينا؟»، التي تمنيت في أحشائها أن تنتشر عدوى استقالة مؤسس تويتر (Twitter) ومديره التنفيذي السابق، إيفان وليامز (Evan Williams)، في مجتمعاتنا، التي جاء في مطلعها: «استقلتُ من إدارة تويتر؛ لأن بناء الأشياء هو شغفي. لم أكن يوماً شغوفاً بالإدارة. سأترك المكان لغيري؛ لأعود إلى ممارسة ما أحب». اعتقلني الحزن كوننا نتشبث بالبقاء، في حين يتوق غيرنا للبناء. أوصدت أبواب الأفراح في صدري جرّاء ردة الفعل الغاضبة على مقالة قصيرة. لم أجد سوى التدوين طوقاً للنجاة، بل لم أجد غير تويتر، التدوين المصغر، الذي تسبب في إيقافي، متنفساً وملاذاً. منحني تويتر سعادة عارمة مع كل تغريدة أكتبها. وأخرى أتصفّحها. سعادة نقلتني من ضفة الحزن إلى السعادة. غيّر تويتر نظرتي تجاه الكثير من الأمور. جعلني أكثر شجاعة على البوح. وأكثر إقبالاً على الاختصار، وأكثر بعداً من الاحتضار.

اكتشفت بفضله أن أعظم النجاحات تأتي بعد أقسى الصدمات. كان نجاحي هو عثوري على أصدقاء جدد أستظل بظلهم، أغفو على وسائد حروفهم، وألتحف كلماتهم، أحلم معهم وبهم.

هؤلاء الأصدقاء وهبوني أياديهم؛ لأهبط على شاطئ مبلل بالفرح، وأغرّد معهم، وأنسى همومي. كتبت تغريدات كثيرة، كثيرة جداً. نسيت إثرها الكتابة التي كنت أقترفها قبل تويتر. فعندما رفع الإيقاف عني وجدتني غير قادر على العودة إلى سابق عهدي. حاولت أن أكتب المقالة الطويلة من دون جدوى. كنت أتعثّر في كل مرة، ولا أكمل شيئاً. بعد محاولات عديدة، قررت أن أستخدم التغريدات التي كتبتها كبذور لمقالات مطوّلة، فوجدتها حلاً ناجعاً، واستثماراً ناجحاً. صار تويتر، لاحقاً، ورشة عملي. التغريدة التي تنال اهتمام الأصدقاء تعني أنها مشروع مقالة ناجحة. والتغريدة التي لا تترك أثراً يُفضّل نسيانها، أو تطويرها حتى تنضج.

إيقافي أعادني إلى مشاريعي المؤجلة. ودفعني إلى إصدار كتابيّ: «كخه يا بابا... في نقد الظواهر الاجتماعية»، و«مضاد حيوي لليأس... قصص نجاح سعودية»، بعد أن كانا مشروعين مُتعثّرين في رأسي. أدركت حكمة رب العالمين عندما قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 216).

لقد ساهم إيقافي عن الكتابة باستكشافي لِعوالم جديدة، ومساحات جديدة ربما لم أكن سأظفر بها لو لم أوقف. إننا دائما نحزن على خسارتنا أشياء ربما يكون فقدانها خيراً لنا. ونقاتل في سبيل استعادتها بكل ما أوتينا من طاقة. لكن هل سألنا أنفسنا: هل هذه الأشياء تستحق كل هذه المشاعر والأحاسيس والجهود التي أهدرناها في سبيلها؟ هل جرّبنا أشياء أخرى بديلة منها؟ إن تمسكنا بالعادات نفسها هو سبب رئيس للإحباط العارم الذي يقطُننا. حياة الكثير منا تخلو من التجارب الجديدة والمغامرات المثيرة. هذه التجارب هي التي تمدّنا بتحدّيات وفرص جديدة لم نكن نحلم بها مُبكِراً.

دخل، إلفرنون فورس، موظف بريد إمريكي متقاعد، تويتر، بحثاً عن مُتعة يقضيها بين أروقته. لكن فوجئ بمتابعة كبيرة لحسابه تجاوزت مئتي ألف متابع في وقت قصير نسبياً. السيد فورس لا يقدم شيئاً جديداً، لكنه يقدم نفسه كما هو. يغرّد عن كل ما يسمعه ويشاهده بعفوية. دفعت هذه العفوية المئات لمتابعته والاستمتاع بما يطرح. اليوم عشرات الشركات التجارية تخطب ود السيد فورس؛ لكي يعمل «ريتويت»، إعادة نشر تغريدة، تتحدث عن منتجاتهم. أو على أقل تقدير تمني النفس في أن يتكرم بإبداء رأيه في أحد منتجاتهم، التي وصلته بالبريد مجاناً، في تغريدة. سعادة فورس كبيرة ليس لكونه يملك رصيداً كبيراً من المتابعين، أو يتلقّى هدايا بصفة مستمرة، بل لأنه حقق ذاته واكتشف أنه يملك شيئاً يستحق المحبة والمتابعة بعد أن أهدر ردحاً من الزمن فقيراً من المحبين.

لا يوجد شعور أعظم من أن تشعر بأنك محبوبٌ. شعور لا يُشرى بالمال. هذا الشعور يوفّره لك «تويتر» عبر رد يصلك من صديق بعيد، بعيد جداً. لم تحلما أن تتعانقا بهذه السهولة، وهذا السخاء. جميعنا فقراء وبحاجة إلى تبرّعات معنوية. وهذه الكلمات الصغيرة التي تُضيء تنويهات صفحاتنا بتويتر (Mentions) تغذّينا بالكثير من البهجة، التي نفتقدها كثيراً في هذا العصر المُتخَم بالآلام.

في هذا الكتاب، أحاول أن أوثق تجربتي المتواضعة مع «تويتر». هذه التجربة التي خرجت من رحم الألم وحوّلته إلى أمل. هذه التجربة التي منحتني الكثير على كافة الأصعدة. لقد قررت مبكراً أن يحوي الكتاب تغريداتي حول الأمل والتفاؤل والسعادة. لكن اقترح عليٍّ صديقي وشقيقي فيصل @F9oo أن أرفق مع العبارات رسوماً مستوحاة منها. أعجبتني الفكرة كثيراً، وانبرى فيصل لتنفيذها على جناح السرعة. اتفق لاحقاً مع الرسامة الشابة، أماني محمد الحتيرشي @AmaniMohM التي ترجمت العبارات برؤيتها الخاصة. ورأيت أن أدرج التدوينات المطولة، التي نهضت من «بذور» التغريدات؛ حتى يكتمل الكتاب وأشجّع الأصدقاء على عدم الركون للتغريدات ومحاولة استثمارها في مشاريع أكبر ينثرون من خلالها أفكارهم بتأنٍ وتؤدة، فلا شك في أن الاختصار فعل عظيم. لكن ينبغي ألا يُنسينا أننا ما زلنا بحاجة إلى الكثير من التدوينات المطولة، والمقالات، والكتب التفصيلية، التي تقودنا إلى المزيد من التفكير والتأمل والبحث.

إننـي أتطلع حقاً أن ينـال هـذا الكتـاب المتواضع قبولكم، ويمنحكم الكثير من السعادة والتفاؤل والأمـل، وتذكّروا جيداً أن الكلمات مثل السلالم تأخذكم إلى الأعلى أو إلى الأسفل. لكنكم وحدكم من يحدد الاتجاه. جعلنا الله وإياكم في صعود مستمر.

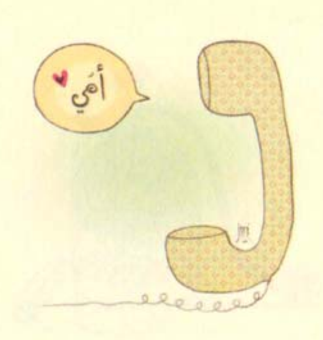
عبدالله المغلوث

29/12/2011

مانشستر

@Almaghlooth

هناك طريق سريع للسعادة، هذا الطريق هو صوت أمك.



***

اكتبوا لمن تحبون قبل أن تخلدوا إلى النوم، وتذكّروا أن رسائلكم لن تغفو معكم ستظل مستيقظة... مستيقظة إلى الأبد.



جرّبوا أن تَفشوا مشاعركم وأحاسيسكم وانطباعاتكم وأحلامكم وهمومكم مباشرة. لا تدّخروا شيئاً إلى الغد.



***

هناك رسائل تُكتَب بالأصابع، وأخرى تُكتَب بالقلوب. الأولى تذوب في السطور والثانية في الصدور. اكتبوا بقلوبكم.



الحروف كالورود لا تفوح رائحتها إلا عندما تلمسها وتقترب منها.



***

العبارة الرقيقة، طائر جميل، فور أن تطلق سراحه من لسانك سيُغرّد في صدور الآخرين.

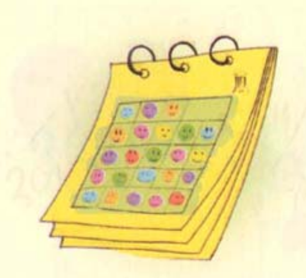


الحب يُحوّل كل ما حولنا إلى قصائد.

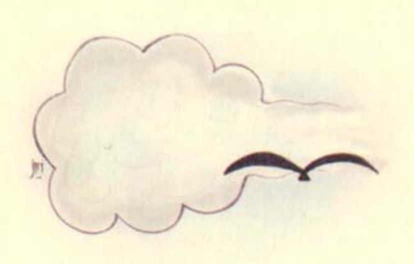


***

لو أسعَدْنا شخصاً كل يوم، لن تتذوق السعادة في داخلنا طعم النوم.



الهموم كالغيوم، ستنقشع يوماً ما.



***

كن «رحيقاً» يمُد مَنْ حوله بالسعادة والأمل، ولا تَكُ «حريقاً» يلتهم لحظاتهم بالشكاية والنحيب.



لا تؤجّل علاج همومك. تصدّى لها على جناح السرعة. فحتى الأطباق المُتّسخة لو أرجأتَ غسيلها ستجد صعوبة بالغة في تنظيفها لاحقاً.



***

المطر لا يهطل من السماء دائماً. يهطل من وجوهنا أحياناً. فابتسامتنا ترطّب الأجواء، وتروي الصدور القاحلة، وتسيل على أثرها أوديةُ وشعابُ القلوب.



كن نبأً سعيداً.



***

السعادةُ ثوبٌ، إذا لم تلبسه، لن تتمتع به.

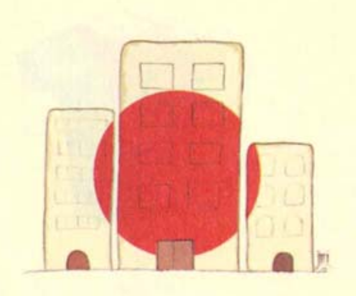


مشهد خرطوم دلة القهوة وهو يدور في المجالس، ينحني ويرتفع بتبذير، يطرح سؤالاً في رأسي: ألهذه الدرجة نحب المُر، نتجرّعه بسخاء؟



***

تتعرض اليابان إلى نحو 1500 هزة أرضية سنوياً بدرجات متفاوتة. هذه الهزّات منحت اليابان قوةً ومناعة ضد اليأس. الهزّات في حياتنا تزيدنا قوة.



أركض باتجاه النجاح. إنه لا يملك قدمين. أنت من يملكهما.



***

تمسّكوا بأصدقائكم... تمسّكوا بهم جيداً. فهم طوق النجاة في هذا العالم المحفوف بالضجر.



بعض الكلمات بوسعنا أن نستنشقها، كالورود تماماً.

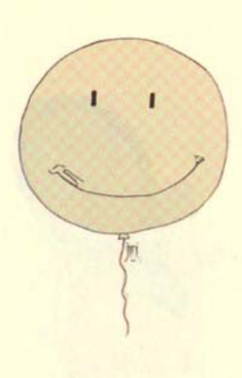


***

لا تتردد بإفشاء محبتك لمن تحب. ستندم طويلاً لاحقاً لأنك لم تفعل.



الابتسامة هي مفردة «شكراً»، لكن مُتنكّرة.

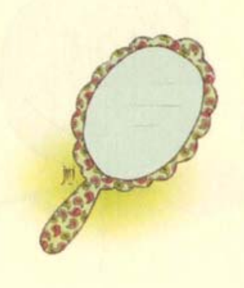


***

السعادة لا تُستورَد... بل من داخلنا تولَد.

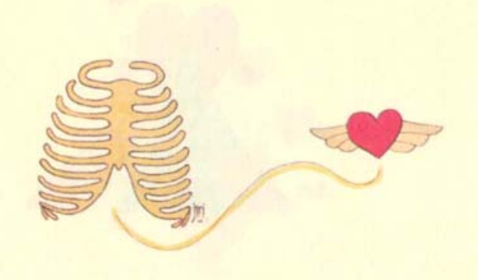


لا تكُ كالمجهر الذي يُضخّم التفاصيل الصغيرة ويكشف مواطن القبح. كن مرآة تعكس ما تراه أمامها بحيادية.



***

لا تحبسوا مشاعركم في أقفاص صدوركم. إنها ليست تُهَماً محكوماً عليها بالسجن المؤبد؟ إنها طيور تعشق التغريد... ترنو إلى التحليق.



جرّب أن تعطّر سجادة صلاة أمك، وقبل أن تطويها ضع في داخلها ورقة اكتب عليها: أحبك. ستمطرك أمك بدعوات عطرة ستفتح أبواب السماء، ستمنحك أجمل مساء.



***

التفاؤل بذرة تزرعها في صدرك؛ لتحصد النجاح.



كلمات التشجيع تذوب في داخلك مثل مكعّبات السكر في كوب القهوة، تنتشر في أنحائك بسخاء، وتمنح يومك نكهة حلوة.

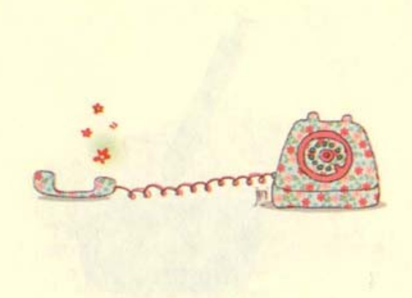


***

البكاء الداخلي أشد فتكاً من الدموع. إن النزيف الداخلي أمكر القتلة.



بعض المكالمات الهاتفية كالكتب الشهيّة... بودك أن لا تنتهي.



***

تجوّل في قائمة إيميلك أو هاتفك، واختر صديقاً لم تتواصل معه منذ فترة. اهدِه عبارة. ستتحول عبارتك إلى باقة ورد تسكن روحك وروح من بعثتها إليه.

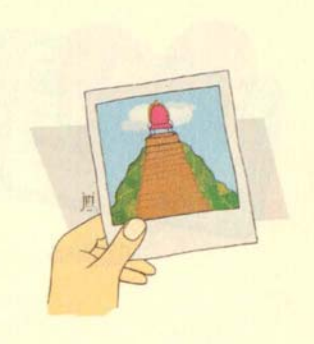


الكتابة، شفاء ودواء.



***

أمل بلا عمل ككف بلا أصابع، يصل إلى القمة، لكن لا يصافحها.

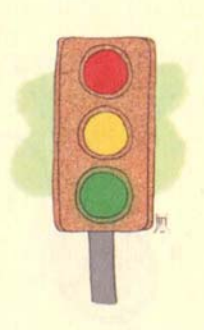


نحرص على إعـادة تأثيث منازلنا وغرفنا، وننسى دائماً إعادة تأثيث أرواحنا وإزالة ترسّبات الماضي.

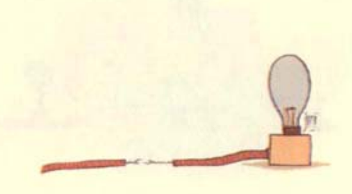


***

الحياة إشارة خضراء، فينبغي ألا نتوقف أمامها.



نغضب عندما تنقطع الكهرباء عن منازلنا، بينما نقطعها عن أرواح من نحب عندما نستقبلهم بعبوس وتجهّم، فيخيّم الظلام على صدورهم.



***

أثمن الساعات ليست التي تعرض في «الفاترينات»، بل التي تجمعنا بمن نُحِب.

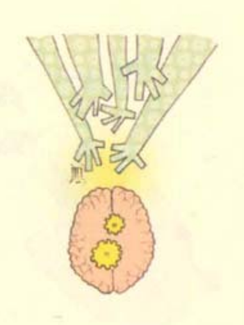


أجمل الطرق هي التي توصلنا إلى قلوب من نُحِب.



***

إن المجتمعات الناهضة هي التي تمد يدها إلى المبدع، وليس لسانها.



الظمأ ليس بالضرورة حاجتنا إلى الماء، بل إلى كلمة تروي أرواحنا القاحلة.

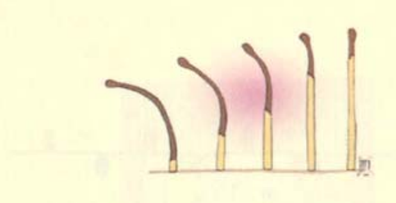


***

بوسعنا أن نحول الحروف إلى كفوف... إلى أجنحة تطير وتعانق السماء. فلا تترددوا بالدعاء.



التأجيل هو موت بطيء لمشاريعنا.

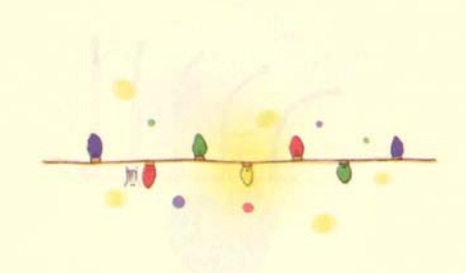


***

الابتسامة... قصيدة بلا كلمات.



أعراس اليوم هي أحلام الأمس. لا تقلعوا عن الأحلام.

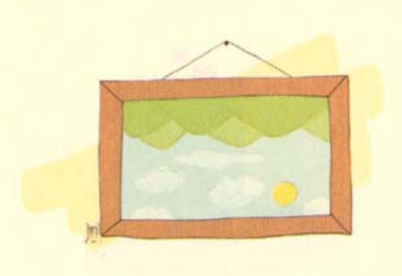


***

هناك بشر مثل المطر عندما يهطل تنتشر السعادة والدعوات. وهناك بشر مثل موجة الغبار عندما تهب تمتلئ الصدور بالضيق



اقرأ كلمة: «الحرف» من اليسار لتصبح فرحاً. قراءتنا غير التقليدية للأشياء تمنحها دهشة.

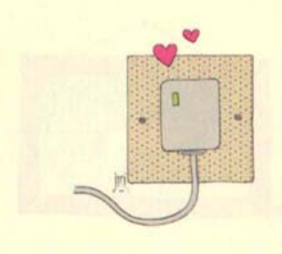


***

ما أعظم السؤال. حتى علامة الاستفهام تنحني تقديراً له.

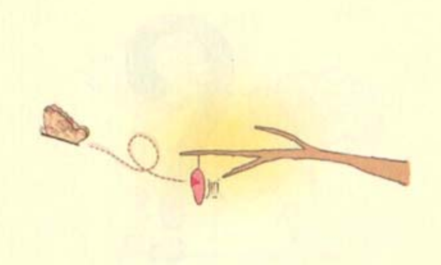


أهمية الصديق لنا قد توازي أهمية شاحن البطارية لأي جهاز. ننصرف عنه قليلاً، لكن لا نستغني عنه.



***

ولد بيكاسو، وأينشتاين، ونيوتن قبل أن يكملوا سبعة أشهر في أرحام أمهاتهم. بدأوا حياتهم بصراع مع الموت. التحديات المبكرة قد تصنع شخصيات استثنائية.



تغيب الشمس قبل أن تشرق كثيراً، وقبل أن تصعد الطائرة عالياً، تحبو طويلاً. وقبل أن ينطلق المتسابق ينحني قليلاً. وقبل أن نفرح نتألم شديداً.



***

الوجوه الخالية من الابتسامة كالفاكهة الصناعية، لا نكهة لها، فلا تستطيع تذوّقها أو استذكارها.



نمسك أشياءنا برفق وحذر. نخشى عليها أن تتجرح، في المقابل، نُلقي الكلام على عواهنه، غير مدركين أنه قد يخدش أرواحاً أثمن وأغلى من الأشياء كلها.



***

لمَ نتوقف ونستسلم؟ بينما الماء يركض بخيلاء لا يقف في طريقه حجر أو شجر، دافعاً صدره إلى الأمام، متحدّياً العراقيل والعقبات.

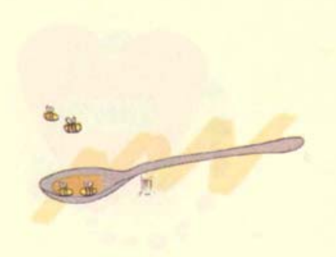


تعلمنا صغاراً أننا إذا أردنا المشي علينا أن ننهض بعد أن نسقط. فالأحرى أن نعي ذلك كباراً، ونُدرك أن السقوط جعلنا لاحقاً نسير، ونركض، وأحياناً نطير.

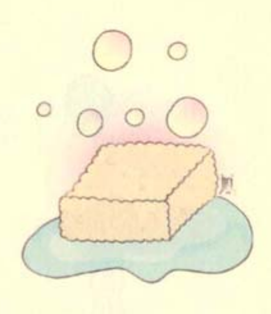


***

ملعقة عسل صغيرة تتطلب عملاً مشتركاً ومتواصلاً لاثنتي عشرة نحلة. العسل كالنجاح يحتاج إلى عمل وتعاون غفير.



نحتاج إلى «غسيل معدة» عندما نأكل «وجبة فاسدة». أفلا نحتاج إلى غسيل عقولنا، عندما نلتهم أفكاراً فاسدة؟



***

الكلمة الطيبة كلمة المرور إلى قلوب الآخرين.



جاءت ميكائيل جان إلى كندا عام 1968، قادمة من هاييتي لدراسة الصحافة. في عام 2005 أصبحت حاكمة كندا. لا تستصغروا أحلامكم.



***

إشاعتك لمشاكلك لا تُنهيها، بل تجعلك أسيراً لها. ربما تجد حلاً لها لاحقاً وتتجاوزها، لكن سيظل الآخرون يذكّرونك بها حتى تموت.



إذا كانت الكريما تجعل أطباق الحلوى أشهى، فإن ابتسامتك تجعلك أزكى وأحلى.



***

إن العاجز الحقيقي هو الذي يملك قدمين ولا يسير بهما نحو القمة. ولديه يدان ولا يستطيع التحليق بواسطتهما.

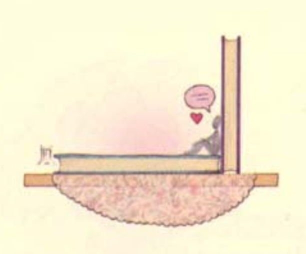


أشياؤنا لن تبقى لنا إذا لم نحافظ عليها.

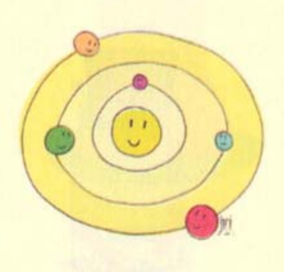


***

الكتاب هو الصديق الوحيد الذي تختار متى تتحدث إليه، وتستمع له.



السعادة معدية، فأشِع الفرح.



***

المبدعون زهور، إذا لم نروِها لن تتفتح.



ثمة مذاق خاص للأشياء التي تأتي متأخرة.



***

هناك حب من أول نظرة. وهناك حب آخر من أول حرف.

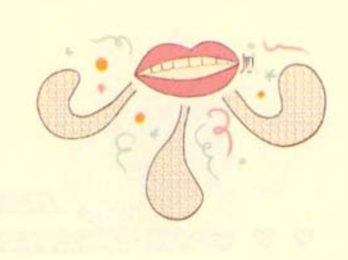


التغريدُ غناءٌ وليس صراخاً.

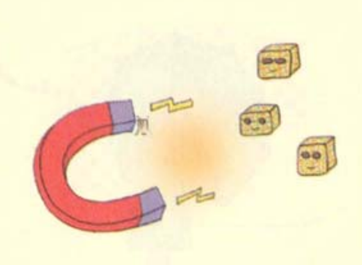


***

لا تكن بخيلاً في مشاعرك مع أصدقائك وأحبّتك.
كلمات قليلة بوسعها أن تحيل يومهم إلى كرنفال فرح.



الأنباء السعيدة عمياء لا تعرف طريقها إليك. أنت من يجب أن يبحث عنها حتى تجدها وتعانقها.



***

نجاحك أمامك وليس خلفك. فلا تلتفت إلى الوراء.



لا تستغنوا عن أحلامكم فهي مصدر غناكم وغنائكم.

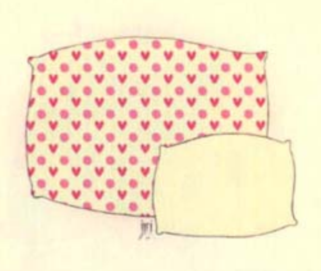


***

لا تعد إلى المنزل إلا وأنت تحمل معك هدية. أيُّ هدية، حتى لو كانت ابتسامة تقدمها إلى زوجتك... وأسرتك.



ينام أحبّتنا قليلاً؛ لأنهم ينامون في رؤوسنا طوال الوقت.



***

أعظم نجاحاتنا هي التي تأتي بعد الهزات والصدمات التي نتعرض لها. فأطيب الثمار لا تهطل من الأشجار إلا بعد أن نهزّها، نهزّها بقوة.

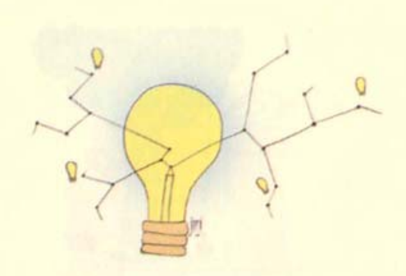


من يستطيع أن يتنفس بوسعه أن ينال أحلامه مهما كانت حدّة آلامه.



***

كل شيء ينتقل في مجتمعنا بالعدوى. من الغلو في الإكسسوارات حتى اقتناء الشهادات. فلمَ لا ننشر فيروس المعرفة؟

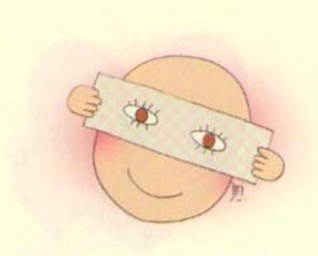


الأمل، هو المصعد الذي يقلك إلى طابق النجاح. وكل ما عليك هو أن تستقلّه.

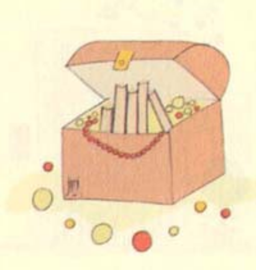


***

سعيد جداً لأن لدي عينين ويدين. ابتهج... لديك الكثير مما يستحق أن تفرح من أجله.



ثمة مصدر سريع للثراء المعرفي يكمن في القراءة،
فلا تموتن إلا وأنتم أثرياء.

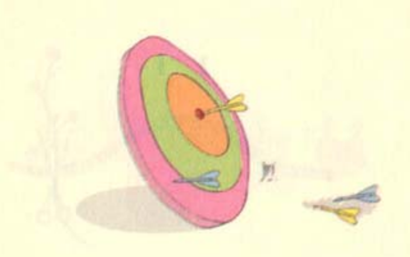


***

أعظم الغرف التي نتطلع أن نقطنها ليست في قصور
ومنازل، بل في قلوب من نهواهم.

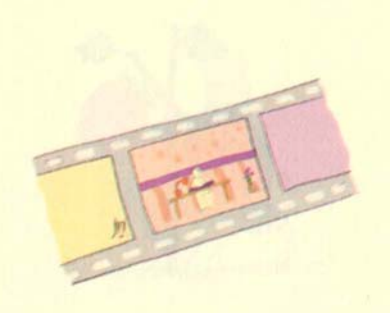


تأملوا في الكثير من الأشياء الجميلة والشهية حولنا وستجدون أنها ثمرة للكثير من الأخطاء والمحاولات.

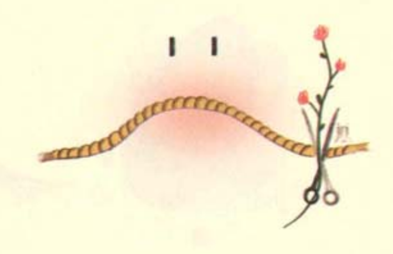


***

بدأ أندرو كارنجي حياته عامل نظافة. استفزه منظر مديره وهو يقرأ. فانكب على القراءة. ثم أصبح مقاولاً ناجحاً، وتبرع بـ 50 مليون دولار للمكتبات. مشهد واحد قد يُغيّر حياتنا.

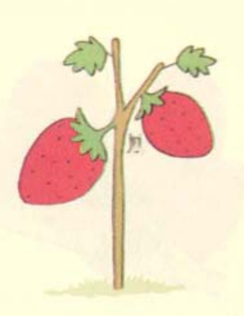


الحزن حبل، إذا لم تقطعه سيخنقك.



***

في حبة الفراولة توجد نحو 200 بذرة سوداء. هذه البذور لم تزدها إلا لذة وجاذبية. الأخطاء الصغيرة في حياتنا كتلك البذور تمنحنا ثقة وتألقاً.

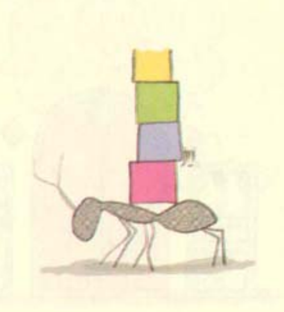


إننا نهتم بملابس أطفالنا أكثر من اهتمامنا بأسئلتهم. إن الملابس تضيق على أطفالنا عندما يكبرون، بينما الأسئلة تكبر معهم.



***

النملة تتكبد مشقة حمل أجسام تفوق حجمها 50 مرة في سبيل أداء مهمتها بنجاح. لا تُدرك الراحة إلا بعد المشقة.



تبرعت بيرثا، زوجة كارل بنز، رائد سيارات مرسيدس- بنز، بمهرها لاستمرار مشروع سيارته، ثم قامت بالتسويق بنجاح لها. أبرز النجاحات خلفها امرأة.

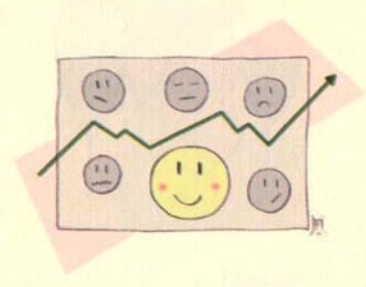


***

باللطف تستطيع أن تفتح الأبواب كلها، وتخلد في قلوب الأحباب.



لا تكن رهيناً لمزاجك، فينخفض إنتاجك، ويرتفع احتجاجك.



***

عندما تتخيل أنك مريض ستصبح مريضاً. تخيل أنك سعيدٌ.



لا تتقشف في أحلامك... فهي مجّاناً.



***

امنح أحبّتك ومن حولك ما يستحقون من إطراء وثناء.
فحتى الورد تُطربه قطرات الندى.



مبتكر شخصية ميكي ماوس، والت ديزني، كان في الحقيقة يخشى الفئران. ثمة أشياء نخشاها قد تكون مصدراً لسعادتنا ونحن لا نعلم.



***

السعادة كما الزهور، تفضّل أن تنبت في البساتين. فاجعل صدرك بستاناً وليس صحراء قاحلة بالتفاؤل والأمل.

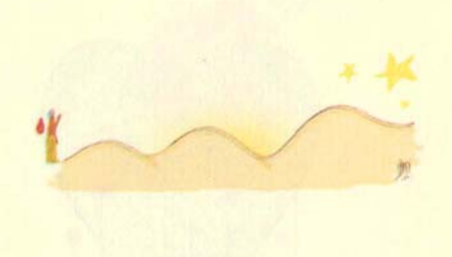


نحن كرؤوس الحربة في لعبة كرة القدم. أحياناً نسجّل أهدافاً، وأحياناً ترتطم كراتنا بالعارضة، وكثيراً ما نُسدّدها بعيداً. المهم أن نستمر بالمحاولة.



***

الانتصار لا يعانق من ينتحب، بل من يتكبد وعثاء السفر في سبيله.

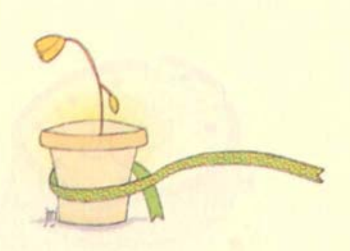


الكثير من العتاب يفضي إلى القليل من الأصدقاء.



***

جميعنا فقراء... نحتاج إلى تبرعات معنوية.



دائما نؤجّل مشاريعنا بذريعة أن «الوقت غير مناسب». الوقت المناسب سراب. والسراب لا يمكن أن نقبض عليه. فلننتزع هذه العبارة من رؤوسنا ونمضي.



***

جميعنا يشتكي من المجتمع، لكن ننسى أننا جزء منه.



من يركز على كل شيء لن يحصل على شيء!



***

بعض الكلمات كالماء تسقي حقول الفرح في أنحائنا فتزهر، فتثمر.



أحسِن النية بالآخرين، وتذكّر حسناتهم قبل إساءة الظن بهم.



***

يتطلب التعامل مع الفراشة رقة متناهية. إنها كالمرأة تماماً تحتاج إلى لمسة حنونة وأجواء ملهمة لتمنحك ألوانها وبهجتها.

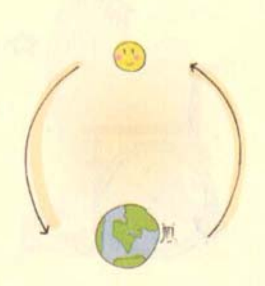


إذا كان الوصول إلى قمة برج إيفل في باريس يتطلب 1665خطوة، فالوصول إلى قمة النجاح يحتاج إلى آلاف الخطوات والساعات والتضحيات. إن مهر الصعود باهظ.



***

الابتسامة التي تسكبها من وجهك ستعود إليك... ستذهب بعيداً بعيداً، لكنها حتما ستعود.



مجرد إعـدادك الشاي لزوجتك بوسعه أن يشعل ابتسامة لا تنطفئ من وجهها. صناعة السعادة لا تحتاج إلى الكثير من المهارة والجهد.



***

الانتصار لا يحتاج إلى أقدام بل إلى إقدام.

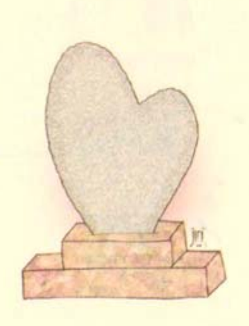


من ينشغل بالآخرين، لن يجد وقتاً لينشغل بنفسه.



***

ليست المشكلة أن نعيش بين جدران من الإسمنت.
لكن المشكلة عندما يعيش الإسمنت في أعماقنا.
فتيبس مشاعرنا، وتصبح جدراناً.

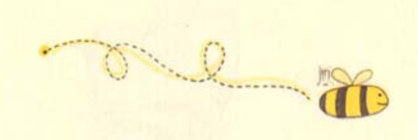


علينا أن نتعامل مع أحلامنا كأطفالنا. نعتني بها حتى تكبر وتصبح واقعاً نفتخر به ونُعوّل عليه.

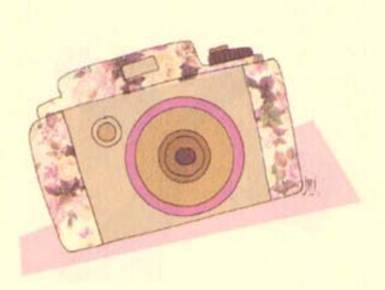


***

النحلة تسافر نحو 69187 كيلومتراً لجمع ما يقارب ثلث كيلو غرام من العسل. من لا يكدح لا يفرح.



إعجاب أقارب لينزدي مانسيو (19 عاماً) بالصور التي التقطتها لزواج ابنة عمها جعلها تحترف التصوير. تملك مانسيو اليوم 5 ملايين دولار. استثمر موهبتك ولا تهدرها.



***

التغريدة الجميلة تعانق السحاب. فالطيور يستهويها التحليق والارتفاع، وليس السهول والبقاع.

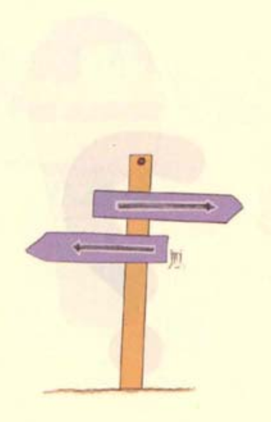


أنت أمام خيارين في هذه الحياة: إما أن تنتصر أو تحتضر. فاختر أحدهما.



***

من يتردد ستضيع من أمامه الفرص وتتبدد.

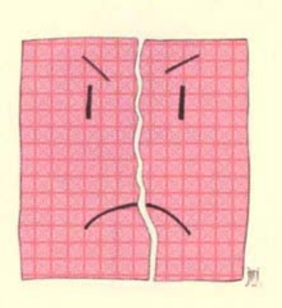


الله ما أعظم أصابعنا. على الرغم من أنها تتألم، لكن لا تتبرّم.



***

لا تغضب فتنضب.



الصعوبات لا تقتل. الحزن هو القاتل.



***

الإطراء كنسمات الهواء الباردة التي تداعب الأشجار، وترقص على إثرها الأغصان. فلا أجمل من أن تتمايل مشاعر من نحب فرحاً على إيقاع كلماتنا.

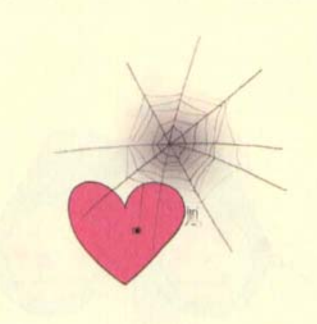


إننا يجب أن نشكر بعض الظروف التي تتيح لنا فرصة خوض تجارب جديدة لا نملك الشجاعة لخوضها طوعاً.

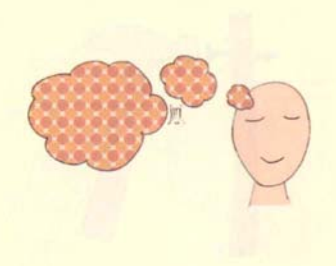


***

الأسوأ حظاً من العاطل عن العمل، هو العاطل عن الحب. فالعاطل عن الحب لا يعمل حتى وإن عمل.



أغمض عينيك وتخيل. قد لا تلمس ما تتخيله، لكن ستقترب منه. أكثر النجاحات بدأت بفكرة في مخيلتنا قبل أن تنضج وتصبح واقعاً.



***

عندما نتأمل سنكتشف شيئاً جميلاً ومذهلاً. ليس بالضرورة أن يكون اختراعاً. ربما يكون أجمل من ذلك. ابتسامة لم ننتبه لها. أو قلب لم نحس بنبضه من قبل.

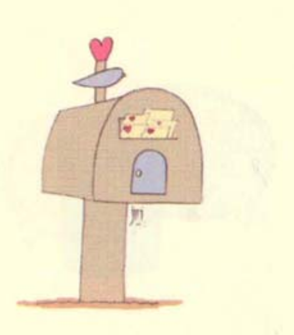


ما قد تبحث عنه قد يكون حولك. دائماً نكتشف متأخرين أن لدينا ملابس أفضل من التي اقتنيناها حديثاً، لكن ربما نسيناها أو تناسيناها.

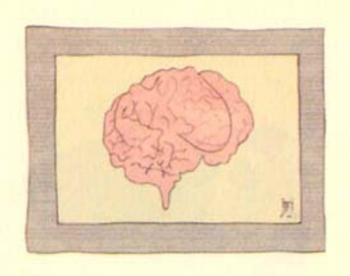


***

آثار كتابة الرسائل تنحصر بورم أصابعك التي ستدمن المراسلة والحب.



أسوأ الجدران ليست الإسمنتية، وإنما التي تقطن خيالاتنا وتحول بيننا وبين جموح طموحاتنا.

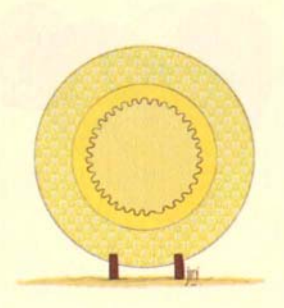


***

أخذت زوجة ستيفن كينج كتابه الأول من القمامة بعد أن فشل بنشره وراسلت داراً نشرته لاحقاً. اليوم بلغ توزيع كتبه 350 مليون نسخة. ليس كل ما نرميه سيئاً.

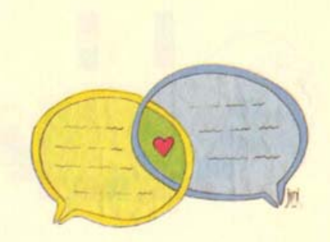


نكافح من أجل اقتناء أجمل وأغلى الملابس، ونغفل الكفاح من أجل تغيير عاداتنا وسلوكياتنا الخاطئة. إن الإناء الباهظ لا يصنع طبقاً شهياً.

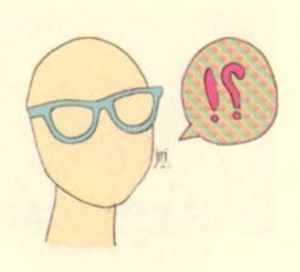


***

العناق ليس بين الأجساد فحسب، وإنما بين العيون والكلمات في أحيان كثيرة.

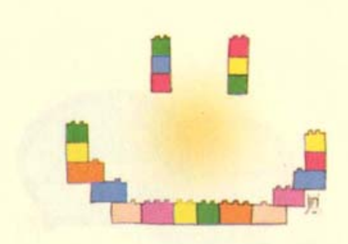


ابحث عن السعادة فربما وجدتها حولك. فطالما بحثت عن نظارتي بينما هي على وجهي.

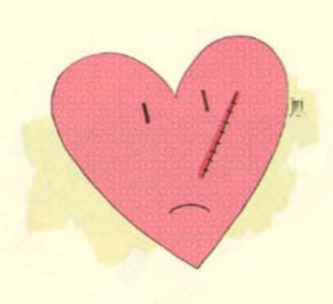


***

الفرح فعل تصنعه، لا تنتظره.

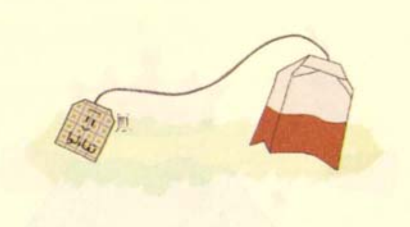


أشد الجروح ألماً ليست التي تبدو آثارها في ملامحنا، بل التي تترك أثراً لا يشاهده أحدٌ في أعماقنا.



***

إذا كان كيس الشاي يجعل الماء أكثر إثـارة، فإن التفاؤل يجعلنا أكثر نضارة.



كلما داهمني الحزن استخرجت من محفظتي دعوات أمي، التي كتبتها بخط يدها، فانشرحت واستعدت سعادتي. جربوا لتَسعَدوا .

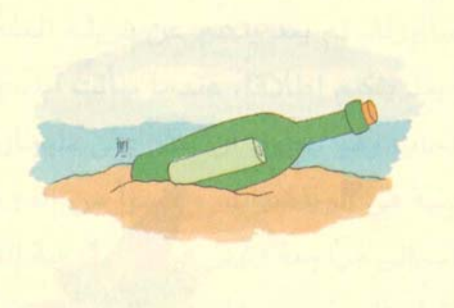


***

بعض الكلمات تتمنى أن لها جبيناً لتُقبّله.



إن كتابة رسائل المحبة والامتنان والتقدير أعظم عقار يقضي على القنوط ويُشيع البهجة.



***

حافظ على أصدقائك بالتواصل معهم. ادخارك لمشاعرك تجاههم لا يقربهم، بل يبعدهم.



ليس من العدل أن ننام من دون أن نخبر أحبّتنا بمشاعرنا تجاههم.



***

لا يخدعك عمر أبيك. في داخله طفل يحتاج إلى ابتسامتك وهداياك .



السُقوطُ الجَميلُ

فجأة خيّم الظلامُ على وجه ابن زميلي. انقطعت ابتسامته التي كانت تُضيء صدورنا. لم يعد يتكلّم عن فريقه المفضل بحبور كما في السابق، بل لم يعد يتكلم إطلاقاً. عندما سألتُ أباه عن سر اختفاء ابنه الذي نعرفه، أجاب وهو يحاول أن يعثر على سيجارته، أن ابنه حصل على درجة متدنية في الرياضيات. والأسوأ من الدرجة بحسب الأب أن ابنه عندما ذهب إلى مراجعة رئيس قسم الهندسة الميكانيكية ليستأنس برأيه خرج خائباً. فقد نصحه أن يبحث عن تخصص آخر ولعلّه يكون أدبياً. دراسة الهندسة الميكانيكية لم تكن مجرد حلم لابن زميلي، بل كل شيء في حياته. فهو يرى أنه مهندس منذ أن كان طالباً في المرحلة المتوسّطة. لم يبقَ كتابٌ باللغة العربية عن تخصصه لم يقتنه. صار التخصص يلاحقه في يقظته ومنامه، لكن لقاءه برئيس القسم أجهض مستقبله. توقف كل ما حوله في لحظات. حاول والداه أن يخرجاه من حالته المعنوية المتردية، من دون جدوى. أصرّ الابن أن يترك الجامعة. لم يعد يحتمل أن يُشاهد أستاذ مادته، ولا رئيس القسم مرة أخرى. أضرب عن الدراسة لمدة أربعة أشهر قبل أن يعود إليها أكثر إصراراً وحماسةً للحصول على درجات مرتفعة. الأسبوع قبل الماضي احتفل زميلي بتخرج ابنه رسمياً وحصوله على درجة البكالوريوس في الهندسة الميكانيكية. هنّأت الوالد والفرحة تملأ صدره وصوته. وتذكّرنا معاً المرارة التي تجرّعها ابنه في البداية، التي كانت الشرارة وراء تفوّقه ونجاحه في النهاية.

يوماً بعد يوم يزداد إيماني بأن التميز لا يأتي من دون أن نتجرّع مرارة الفشل. يوماً بعد يوم تزداد قناعتي بأن التعثّر يصنع منك متسابقاً أشد بأساً. لو تصفّحنا سِيَر الناجحين من حولنا لوجدنا أن كل واحد منهم لديه قصة، حُبلى بالمعاناة، رافقت بداياته، وساهمت بصنع النجاح الذي يعيش فيه. الإخفاقات وقود ودافع للمثابرة. إن الأجنحة التي لا ترفرف لا تطير. فمن أراد أن يمخُر عُباب السماء فعليه أن يحتمل الألم. هذا الألم هو الذي سيحمله إلى الأعلى.

الأمريكي، روبرت ستيرنبرغ، يعشق علم النفس بشدة. التحق بجامعة ييل الشهيرة ليُشبِع نهمه ويحقق ذاته، لكنه اصطدم بحصوله على درجة متدنّية في مبادئ علم النفس. وما زاد الأمر سوءاً وتعقيداً هو أن أستاذه أكد له أنه «لا يملك موهبة حقيقية». دخل ستيرنبرغ في نوبة بكاء طويلة لم تنته إلا عندما غيّر تخصصه إلى الرياضيات لعله ينسى «علم النفس» ويُعيد اكتشاف نفسه، لكن صوتاً في داخله كان يُلح عليه بالعودة إلى تخصصه الذي يعشقه ورد اعتباره من أستاذه. رضخ ربرت لعقله الباطن وعاد إلى عشقه الأول بعد فصل دراسي مرير. درس مجدداً المادة الأولى التي حصل فيها على درجة «C» أو «ج»، كما في قاموسنا، وكانت النتيجة الدرجة الكاملة. الدرجة الكاملة كانت هي نتيجة كل المواد التي أخذها ستيرنبرغ في الجامعة لاحقاً. تخرج في عام 1972 بتفوّق مع مرتبة الشرف الأولى. كان محل إعجاب أغلب أعضاء هيئة التدريس في قسم علم النفس منذ عودته إلى أحضانه. كانوا يرون فيه عالماً واعداً. لم يخذلهم، حصل على الماجستير ومن ثم الدكتوراه بسرعة قياسية في عام 1975 من

جامعة ستانفورد. وحصل لاحقاً على خمس شهادات دكتوراه فخرية من جامعات عالمية، ونال 21 جائزة علمية من مراكز بحثية عدة ومنظمات دولية. نشر منذ في عام 1976 حتى اليوم نحو 950 بحثاً علمياً وكتاباً في الإبداع، والذكاء العاطفي، وأنماط التفكير، والفلسفة النفسية، ولديه أكثر من 50 بحثاً تحت الطبع. وتجاوز الدعم المادي الذي حصل عليه من المؤسسات البحثية أكثر 20 مليون دولار أمريكي. ويعتقد ستيرنبرغ (62 عاماً) أن «اللكمة» التي وجهها إليه أستاذه كانت أكبر دافع له لتحقيق هذه الإنجازات العلمية والثأر من وصفه «بعدم الموهوب». لو استسلم ستيرنبرغ لسقوطه المبكر لما عرف التاريخ عالماً فذاً مثله.

إن البدايات الصعبة لا تواجه الأكاديميين والمؤلفين فحسب، بل تُواجه الجميع بلا استثناء. وتمنحنا أجنحة إضافية تحلّق بنا في سماء الإبداع. فالممثل الأمريكي جيري ساينفلد (57 عاماً)، الذي حقق مسلسله الكوميدي «ساينفلد» نجاحاً تاريخياً حول العالم خلال عرضه لمدة 9 سنوات ابتداء من عام 1989 تعرض في بدايته لموقف كاد ينهي حياته الكوميدية. فعندما صعد إلى المسرح لأول مرة لارتجال بعض «الاسكتشات» الكوميدية التي يحفظها عن ظهر قلب ويفضلها أصدقاؤه انتابته نوبة هلع قاتلة، جعلته يرتجف ويتصبب عرقاً بغزارة، مما دفع الجمهور إلى المطالبة بإنزاله من المسرح على الفور. أصدقاء ساينفلد حوله كانوا يؤمنون بموهبته. طالبوه بنسيان ما فات والعمل على اعتلاء المسرح لتأكيد موهبته أمام الجمهور. تردد ساينفلد كثيراً، لكنه فعلها. صعد في اليوم التالي إلى

نفس المسرح. خلع وجوه الجمهور الذين لا يعرفهم واستبدلهم بوجوه أصدقائه في مخيلته. وحقق نجاحاً مدوياً استمر حتى الفجر، لا بل إلى اليوم.

ليست كل الأبواب أوتوماتيكية، تفتح بمجرد توقفنا أمامها. إن أجملها وأغلاها ثمناً هي التي تتطلب أن نفتحها بأيدينا لنرى العالم الجميل الذي ينتظرنا خلفها. فمن أراد هذا العالم فعليه أن يدفع هذا الباب بيديه لينعم به ومعه. إننا تعلمنا عندما كنا أطفالاً أننا إذا أردنا المشي علينا أن ننهض بعد أن نسقط. فمن الأحرى أن نسترجع هذه الذكريات عندما أصبحنا كباراً، وندرك أن هذا السقوط جعلنا لاحقا نسير، ونركض، وأحياناً نطير!

سحرُ الفُرَص الضائعة!

استعدّ البلجيكي، بيير كوليفورد، جيداً للمقابلة الوظيفية التي تنتظره غداً لشغل وظيفة مساعد طبيب أسنان في إحدى العيادات الشهيرة في بروكسل. تناول عشاءً خفيفاً عند السابعة مساءً، ثم جرّب ارتداء قميصه السماوي للمرة الحادية عشرة، الذي اشتراه خصيصاً للمقابلة. قبل حلول الساعة التاسعة مساءً، كان بيير يغطُّ في سُبات عميق، استيقظ مبكراً جداً... استحمّ، ثم أعدّ فطوره المُفضّل. كأس حليب مع تفاحة طازجة اشتراها بالأمس من البقالة المجاورة، ارتدى سرواله وقميصه الجديد. سرّح شعره وقطف مفتاح غرفته من الطاولة، بحث عن محفظته التي يضع فيها بطاقاته ونقوده، لكن لم يجدها على الطاولة أو ما جاورها. قلب الغرفة رأساً على عقب من دون جدوى... تلوث قميصه الجديد بعرقه وقلقه، وسرواله بالغبار وتوتره. فتّش عنها في كل مكان... في دورة المياه وتحت السرير. في المطبخ وبين الأواني بلا نتيجة. كان الوقت يمر سريعاً جداً جداً، كانت المرة الوحيدة التي فكّر فيها في تحطيم ساعة يده التي ورِثها من عمه ليضع حداً لنزيف الوقت، لم يبقَ على موعده سوى ساعة فقط... والحافلة التي ستقلّه إلى مكان المقابلة تحتاج إلى نحو 40 دقيقة. كان في حيرَةٍ من أمره، هل يُواصل البحث أم يذهب؟ كان بين خيارين أحلاهما مر. لو واصل البحث قليلاً ربما لن يدخل المقابلة بسبب تأخّره، ولو ذهب قد لا يدخل لأنه لا يملك أي إثبات أنه بيير كوليفورد. لم ينتظر طويلاً. قرر أن يذهب عارياً من

هويته. لكن الحافلة تأخّرت، تأخّرت أكثر من نصف ساعة. ووصل إلى الموعد متأخراً نحو ربع ساعة. سُمح له بالدخول بشرط ألا ينبس ببنت شفة. وجد موظفَين حانقَين قالا له بصوت واحد: لن تحصل على هذه الوظيفة أو غيرها، من لا يحترم الوقت لن يجد من يحترمه. حاول أن يُدافع. ولكنهما منعاه، قائلين على الفور: اخرج لو سمحت. خرج والدموع تحتشد في محاجره.

عاد إلى المنزل يجر أذيال الخيبة. اضطر مُكرهاً قبول العرض الآخر الذي تلقّاه مبكراً للعمل كمتدرب في استوديو للرسم، لتسديد التزاماته المالية وديونه المتراكمة. لم يكن العرض مغرياً له. الراتب زهيد والدوام طويل جداً، لكن بيير اكتشف نفسه في الاستوديو. رجع إلى مزاولة هواية الرسم التي ابتعد عنها طويلاً، بفضل تشجيع مدرّبيه، والأجواء الملهمة التي وجدها في المكان. تعرّف لاحقاً إلى رسامين مبدعين مثل أندريه فرانقيون وموريس. عمل مع أندريه في مجلة لرسوم الأطفال وحقق نجاحاً كبيراً. وعُرف باسم «بييو». انتشر اسمه سريعاً، وأصبحت أعماله محل إعجاب الكثيرين.

في سلسلة «جون وبيويت» الكوميدية ظهرت شخصية كارتونية ابتكرها «بييو» باسم «السنافر» أول مرة. حققت الشخصية نجاحاً مدوّياً. انتقلت من عالم الورق إلى التلفزيون، ومن ثم إلى السينما. انتشرت شخصيات السنافر من المحيط إلى المحيط منذ عام 1958 وحتى اللحظة. بات السنافر في كل مكان وبكل اللغات، كدمى وألعاب فيديو وقصص وروايات. تهفو إليهم قلوب الأطفال والكبار معاً. تخيّلوا

المشهد فقط لو وجد بيير محفظته في الوقت المناسب لربما أصبح مساعد طبيب أسنان مغموراً. سيموت ولن يعلم عن موته أحد، لكن عندما مات في عام 1992 اتّشحت الصحف البلجيكية بالسواد كأنها في مأتم. تعاملت مع وفاته كما تتعامل مع رحيل الزعماء والقياديين الأفذاذ.

إن ما حدث لبيير مع وظيفة مساعد طبيب الأسنان قد يحدث مع أي منا من دون أن ندري، فقد نخسر وظيفة وفرصة نتطلع إليها ونحزن ونذوي إثرها، ولا نعلم أن الخير يكمن في تركها. لا يوجد أبلغ وأعظم من القول الكريم: ﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (البقرة: 216) في التصدي لهذا الحزن. نتألّم كثيراً إذا أهدرنا فرصة غير مُدركين أن الغد أكثر إشراقاً، وإذا ضاعت فرصة فإن هناك الكثير من الفرص المُتاحة. إن من أكثر المقولات التي تُزعجني هي مقولة: «الفرصة لا تأتي مرتين». إنها تأتي مرات عديدة ومديدة متى ما تحرّرنا من أحزاننا ومخاوفنا، وخرجنا بشهية مفتوحة إلى العالم المليء بالفرص، والمتسامح جداً مع المحاولات والتجارب.

أدبياتنا وثقافتنا للأسف هي مصدر للإحباط وذخيرة للتشاؤم. إن الله كريم جداً معنا، منحنا عشرة أصابع في أيدينا، ولم يمنحنا واحداً. فلمَ نقتصد في الفرص ونُمعِن في الضجر؟ لو كانت الفرصة لا تأتي مرتين، لما أحرز لاعب برشلونة، ليونيل ميسي، أكثر من 200 هدف، ولما نال الممثل الأمريكي، جاك نيكلسون، 3 جوائز أوسكار.

لا تأسفوا على الفرص المُهدَرة، وإنما تأسفوا على حزنكم عليها، لأن الفرص لا تموت. لكن الحزن هو المميت. يخنق أرواحنا ويبلّد مشاعرنا ويُحرمنا من المحاولة والتألّق.

التأمُّل... صيغةٌ جديدةٌ للسعادة

في ربيع عام 1963 وضع روبرت وليام كيرنس قطرة في عينه فتغيرت صناعة السيارات للأبد. حيث لاحظ روبرت أن عينه أصبحت ترمش كل بضع ثوانٍ تلقائياً منذ أن وضع القطرة فيها. وأدى سلوك عينه إلى انتشار القطرة في أرجائها وقدرته على الرؤية بوضوح سريعاً. تأمّل كيرنس لسلوك عينه، وقتئذ، دفعه إلى اختراع مسّاحاتٍ سيارة حديثة مستلهماً فكرتها من عينيه. هذه الفكرة التي قدّمها إلى شركة فورد، وحصل على حقوقها بعد محاكمات طويلة وشرسة، صارت هي نظام تشغيل مسّاحات الزجاج الأمامي الحديث المستعمل في كل سيارات العالم من المحيط إلى المحيط.

لم يقم كيرنس بحل معادلات رياضية أو تجارب كيميائية ليتوصل إلى هذه الفكرة. كل ما قام به هو مجرد التأمّل في سلوك عينه بعد أن وضع القطرة فيها.

والحال نفسه ينطبق على القطار الياباني الشهير والمعروف بـ«الرصاصة»، 500 سيريس، المستوحى تصميمه من منقار طائر الرفراف الذي يخترق الهواء بسرعة فائقة وبهدوء تام. وقد أنفق المهندس الياباني الذي صممه شهوراً طويلة يتأمل ويُراقِب فيها هذا الطائر وقدرته المُذهلة على اصطياد فريسته بسرعة قياسية. واستطاع أن يحول مشاهداته لهذا الطائر إلى فكرة خلّاقة سحرت الألباب وأسعدت الركاب.

بيرسي شاو هو الآخر أدهش العالم باختراعه «عيون القطط» في عام 1934. فكرة يسيرة وسهلة اعتقلها. فأثناء قيادته لمركبته على طريق سريعة حينما قفز أمامه قط بعينيه المضيئتين، هرب القط من أمام سيارته، لكن عينيه المضيئتين ظلتا تلمعان في رأسه. استلهم منهما العيون التي تستلقي في طرق العالم من أقصاه إلى أقصاه.

الكثير من الاختراعات والابتكارات العظيمة بدأت بالتأمّل قبل أن تتحول إلى فعل ينتزع الإعجاب والدهشة من صدورنا.

نفتقر في مجتمعاتنا العربية للأسف إلى الوعي بالتأمل. نتجاهل أهميته في مناحي الحياة كلها، ما يُحرمنا من قائمة طويلة من الامتيازات تبدأ بالاختراعات، مروراً بالابتكارات، وليس انتهاءً بالامتنان.

لو كل شخص منا تأمّل ما حوله من عظمة ودهشة وسحر فسيكتشف شيئاً جميلاً ومُذهلاً. ليس بالضرورة أن يكون اختراعاً أو ابتكاراً. ربما يكون أجمل من ذلك. ابتسامة لم ينتبه لها، أو قلب بجواره لم يحس بنبضه من قبل.

لنتأمل نبل أمهاتنا، وجهد زوجاتنا. لنتأمل كرم آبائنا وصبر من يعملون معنا ويقومون بتلبية احتياجاتنا. هذا التأمل سيملأنا امتناناً. امتنان سينعكس على تعاملنا معهم وسلوكنا تجاههم، امتنان سيحيل أيامَنا إلى أخرى جديدة مطرّزة بالعرفان.

في ازدحام مفكرتنا بالأعمال، ما صغُر منها وما كبُر، ننسى أن نتأمل في إبداع الرحمن وما يتدفق حولنا من جمال لا يُقاس ولا يُقدر.

علينا أن نبدأ بتخصيص أوقات للتأمّل يومياً. ينبغي ألا تكون ساعة، أو حتى نصف ساعة. خمس دقائق كافية، كافية لتعبئتنا بحماسة وسعادة كبيرتين.

للأسف، نغفل فضل التأمّل، بينما من رحمه تولد الكثير من المشاعر الفياضة، الكثير من الطاقة الإيجابية التي ستحوّلنا إلى كائنات منتجة مُعطاءة.

تأمّلوا... تتقدّموا. التأمل سيمنحكم نعمة عظيمة تتجسد في اكتشافكم لما بجواركم من خير وجمال. سيجعلكم تبتكرون صيغاً جديدة للامتنان. صيغاً جديدة تخترعونها من عدم. قد لا تغيّر العالم. لكن حتماً ستغيّر حياتكم ونظرتكم إليها. تجاهلنا لفضيلة التأمل سيكرّس بقاءنا في ذيل الأمم، ننفق أوقاتنا في ما لا ينفع. فلا خير في بصرنا إذا لم يُبصِرْنا ويَهدينا. ولا فائدة لأفئدتنا إذا لم تنبض وتهتز وتتحرك إزاء ما يموج أمامها من سحر ودهشة.

التأمّل، فعل صغير لكن أثره كبير. أكبر مما نعتقد أو نتوقع.

لا تتركوا شاشا!

في نهاية أيار/مايو 2006 نسيت إيفانا هاتفها في المقعد الخلفي لسيارة أجرة في مدينة نيويورك. أجرت اتصالات على رقمها بعد ساعات من فقدانه من دون جدوى. أرسلت رسائل نصية عدة إلى رقمها، لكن لم يرد عليها أحد. استعانت بزميلها إفان جوتمان لمساعدتها. عرضا 300 دولار على من لديه الجهاز مقابل إعادته إليها. فقيمة الجهاز المعنوية لديها أكبر من المادية. بعد يومين من الرسائل والاتصالات قررت إيفانا أن تقتني جهازاً جديداً. هاتفت شركة الاتصالات المشغّلة لجوّالها؛ لتحويل المعلومات المخزنة في سجلاتها إلى الجهاز الجديد. استجابت الشركة لطلبها. كانت المفاجأة أنها استقبلت بيانات جديدة في جهازها الحديث تعود إلى الشخص الذي يستخدم هاتفها المفقود. فقد تبادل هذا الشخص الرسائل والصور مع آخرين عبر جهازها القديم. توصلت لاسم هذا الشخص وصوره ورسائله وإيميله. الشخص هو شاشا، أمريكية من أصل مكسيكي.

أرسلت لها إيفانا رسالة تطلب من خلالها استعادة جهازها. أجابتها شاشا باقتضاب قائلة: «أنت بيضاء حمقاء، لا تستحقين هذا الجهاز. لن يعود إليك مرة أخرى». رد شاشا لم يرق لإيفانا وزميلها، فقررا على الفور إنشاء موقع إلكتروني ينشران عبره قصة الجوال بحثاً عن حلول مجدية لاستعادته. يوم 6 حزيران/يونيو انطلق الموقع

فعلياً. وضعا فيه القصة وصورة شاشا. تناقل رابط الموقع الركبان. تلقت إيفانا في أول يوم رسالة من شخص يدعى لويس، يزعم أنه شقيق شاشا ويعمل في الشرطة. وأكد أن أخته اشترت الجهاز من بائع متجوّل. وطلب من إيفانا أن تنتزع صورة شقيقته من الموقع وتتوقف عن التعريض بها. رسالة أخرى تلقتها في اليوم نفسه من شخص مجهول وفّر لها عنوان منزل شاشا. مئات الرسائل تدفقت إلى بريدها. آلاف الزيارات سجّلها الموقع. شرطي تطوع لمساعدتها في تسجيل بلاغ رسمي. قناة تلفزيونية محلية عرضت تقريراً عن الموقع. في يوم 15 حزيران/يونيو 2006 الشرطة قبضت على شاشا وأعادت الجوال إلى إيفانا.

موقع «ستولن سايد كيك»، الذي أطلقته إيفانا وزميلها صار لاحقاً قبلة لكل من سُرق أو أضاع جهاز جواله. أصبحت إيفانا نجمة يتحدث عنها الصحفيون والأكاديميون على حد سواء. تحوّلت معاناتها في فقدان جوالها إلى مصدر لثرائها معنوياً ومادياً.

الحال نفسه ينطبق على أستاذ الفيزياء في مدينة نيس الفرنسية، جوزيه باليمو، الذي تعطّلت سيارته ولم يعد قادراً على الذهاب إلى المدرسة ليومين متتاليين. فلا يملك أجر المواصلات الباهظة التي تقلّه من مدينته النائية إلى طرف مدينة نيس. هدده مديره بالخصم إذا لم يجد حلاً سريعاً للحضور والقيام بالشرح للطلاب. قام جوزيه بتسجيل محاضرات في منزله ورفعها على اليوتيوب ليشاهدها طلابه. لم يشاهدها طلابه فحسب، بل طلاب

جنوب فرنسا بأسرها. نالت المحاضرات إعجاب الجميع، وسلّطت الضوء على إمكاناته ومهاراته. في اليوم الثالث من رفعه المحاضرات على اليوتيوب تلقى جوزيه اتصالاً من مدير مؤسسة تعليمية يطلب التعاقد معه بمبلغ أكبر 10 مرات من الذي كان يتقاضاه في مدرسته. جوزيه بعد أن كان يركب سيارة رثة ومتهالكة بات يمتطي سيارة فارهة وحديثة. واتفق أيضاً في نهاية عام 2010 مع شركة إنتاج وسائل تعليمية فرنسية بمبلغ يعادل 4 ملايين دولار لتسويق محاضراته على الطلبة الفرنسيين للمرحلة الثانوية.

إيفانا وجوزيه مثالان ساطعان لشخصين تعرّضا لمشكلتين متفاوتتين، لكن تعاملا معهما بذكاء واستبسال. الأولى قاتلت لاستعادة جوالها، والثاني للمحافظة على وظيفته. والنتيجة كانت ليس مجرد عودة جوال والاستمرار في عمل، بل تعدَّت ذلك بكثير.

لو كل شخص منّا تعامل مع مشاكله بطريقة إيفانا وجوزيه نفسها، أجزم أننا سنتجاوزها. ربما لا نكون نجوماً مثلهما يسهر الناس جراها ويختصمون، لكن قطعاً سنتغلب عليها. مشكلتنا الحقيقية أننا نفقد الأمل بسرعة، ونهدر حقوقنا وأشياءنا بسهولة. ولا ندرك أن الأمل، كما قال الدكتور عدنان الماضي، يبدأ بـ«الأم». والأم لا تبخل على أبنائها أبداً، بل تمنحهم أكثر مما يتمنون ويشتهون.

في حياة كل منا، شاشا، الفتاة التي سرقت جهاز إيفانا. دورنا ألا ندعها تذهب، وأن نلحقها. أشياؤنا لن تبقى لنا إذا لم نُحافظ عليها.

أطولُ رجلٍ في العَالم

وُلد محمد أفضل خان (53 عاماً) في مدينة جيلوم في باكستان، لأسرة مسلمة فقيرة مُعدَمة. نشأ وسط الجوع والعطش. منظر جسده النحيل وقفصه الصدري الذي يكاد يمزق جلده محاولاً الهروب منه كان مصدراً لشفقة أقاربه وكل من يراه أو يسمع عن حالته. تبنّاه عمه المقيم في بريطانيا تعاطفاً مع ظروف والده الصعبة. حمله معه إلى المملكة المتحدة قبل أن يكمل 11 عاماً. كانت شهور محمد الأولى عصيبة جداً، بعيداً عن أهله ومحيطه. فعندما توفّر الغذاء غابت شهيته. تعرّض لصدمة نفسية كبيرة إزاء فقده لوالديه، وعدم استطاعته التحدث بالإنكليزية والتواصل مع أبناء عمه الذين لا يجيدون لغة سواها.

بعد أن كان محمد مسجوناً في منزله بباكستان إثر الجوع والفقر المدقع، صار محبوساً في بريطانيا بسبب حاجز اللغة وفقده لوالديه. تجاوز محمد حالته النفسية الصعبة بعد شهور طويلة. دخل المدرسة. لكنه تعثر غير مرة بسبب اللغة وانطوائه. قرر عمه وسط إلحاحه أن يدعه يعمل عندما بلغ الـ16 من عمره في مصنع للقطن. أظهر محمد كفاءة عالية. تدرّج في المصنع وحصد إعجاب رؤسائه. لكنه سأل نفسه ذات يوم وهو يهم بالخروج من المصنع: إلى متى سأظل هنا؟ هل تركت وطني وأهلي لأكون عاملاً بسيطاً في مصنع؟ كان هذا السؤال دعوة لإيقاظ أحلامه النائمة. عاد إلى مقاعد الدراسة

من جديد من خلال الدوام المسائي. انتقل من مصنع القطن إلى آخر لتعبئة البطاريات حتى يتناسب أكثر مع ظروفه الجديدة. ترك مصنع البطاريات وتحول إلى سائق حافلة عامة. كان يصغي خلال قيادته الحافلة إلى أحاديث الطلاب ونقاشهم حول المحاضرات والاختبارات. حول الأساتذة والمناهج. شعر من خلال حديثهم بأنه ليس أقل منهم وعياً وإدراكاً. وأن بوسعه أن يكون أحدهم يوماً ما. فور أن أنهى دراسته العامة تقدم للحصول على قبول في القانون في جامعة مانشستر. لكنه لم يُقبَل. كانت تنقصه بعض الدرجات المطلوبة في بعض المواد ليتمكن من الالتحاق بهذا التخصص. انكب على دراسة مواد مكثفة في الكتابة والبحث والتاريخ. تجاوزها بصعوبة بالغة. لكنه تجاوزها. حصل على قبول غير مشروط، انضم إثره للجامعة بدوام جزئي. عمل خلال تلك الفترة كشرطي، ما ساعده أكثر في تحصيله العلمي وتنمية وعيه الأمني والقانوني معاً. نال لاحقاً درجة البكالوريوس بالقانون ثم استقال من الشرطة. تفرغ للمحاماة بعد أن تدرّب في أكثر من مكتب مرموق في بريطانيا. لمع اسمه في عالم المحاماة بسرعة. تخصص بقضايا اللاجئين والأقليات والمشردين الذين كان أحدهم يوماً من الأيام. لم تنته أحلام محمد إلى هنا، بل للتو بدأت. ترشح للعمل مستشاراً في مجلس المدينة وبعد فترة قصيرة انتخب نائباً لعمدة مانشستر. وفي عام 2004 عندما قرر أن ينتخب نفسه عمدة للمدينة التي يقطنها أكثر من نحو مليونين وستمئة ألف نسمة، اقترح عليه أحد أصدقائه المقربين عدم المحاولة. لكن محمداً حاول وفاز بفارق 3 أصوات عن منافسه اللدود. وصار محمد أول مسلم وآسيوي يصبح عمدة لمدينة بريطانية منذ 700 سنة.

محمد الذي أصبح عمدة مانشستر في عام 2005 إلى 2006 ينتظره حالياً مستقبل واعد في حزب العمال البريطاني الذي ينتمي إليه. وربما يصبح رئيساً لوزراء بريطانيا يوماً ما. المسلمون في بريطانيا يعتبرونه «أيقونة» نجاح. صعوده المهني وقصة كفاحه صارا مصدر إلهام للكثير من البريطانيين من أصول آسيوية.

عندما دعاني زميلي للقائه الأسبوع الماضي قال لي إنك ستشاهد رجلاً طويلاً حجماً وفكراً. لكن وجدته أطول من ذلك بكثير. فقد كانت أحلامه تعانق السحاب.

لا يوجد أسوأ من الظروف المادية التي تعرّض لها محمد أفضل خان في بداية حياته. لا يوجد أسوأ من الظروف المعنوية والنفسية التي عاناها عند وصوله لبريطانيا. لكنه حوّلها إلى وقود للنجاح.

عمل خان في مصنعي القطن وتعبئة البطاريات، ومن ثم سائقاً لحافلة عامة أعطاه مصداقية ومنحه دفعة إضافية في الانتخابات التي خاضها ويخوضها. هذه المهن البسيطة صنعت الفرق. فكلما صعد محمد المنبر وخاطب العمال استهل حديثه قائلاً: «أنا منكم. عملت مثلكم. أشعر بكم. ولست كالبقية الذين ولدوا وفي أفواههم ملاعق من ذهب».

قصة نجاح محمد أفضل خان يجب أن تُعلّمنا أن البيئة الصعبة والظروف الشائكة قد تصنع نجاحاً مدوّياً. إنها ينبغي ألا تُنهينا وتقتل

أحلامنا، بل على العكس يجب أن تدفعنا إلى الانتقام منها، والفوز بالنجاح الذي يليق بأملنا وطموح آبائنا وأمهاتنا.

لا تتقشفوا في أحلامكم، ولا تركنوا لأحزانكم. فخان الذي جاء فقيراً صغيراً إلى بريطانيا، صار المواطن الأول في مانشستر عام 2005 بتنصيبه عمدة لها. تصدّرت صوره الصحف واللقاءات. وأصبح شخصية عامة تحظى بنصيب وافر من الاحترام والتقدير. محمد الذي كاد الفقر يمزق صدره مبكراً، يحتشد اليوم الفرح صارخاً في داخله.

لا شيء مستحيلاً مع الأمل والعمل. بوسعنا أن نكون ما نريد متى ما تمسّكنا بأملنا، فهو طوق النجاة الذي سيقلنا إلى مرفأ النجاح.

علينا فقط أن نثق بأن الظروف ليست سبب عدم نجاحنا، بل نحن السبب؛ لأننا استسلمنا لها ولم نجعلها قارباً يقودنا إلى ضفة الانتصار.

قصص النجاح العظيمة لم تُكتَب بعد. ربما تكون أنت إحدى هذه القصص. فاقتلع الإحباط من رأسك وابدأ بكتابتها اليوم وليس غداً.

الإسمنتيون

ليست المشكلة في أن نعيش بين جدران من الإسمنت. لكن المشكلة عندما يعيش الإسمنت في أعماقنا، فتيبس مشاعرنا، وتصبح جدراناً. إننا نحزن دائماً عندما يستقبلنا موظفٌ بتجهم وعبوس غير مُدركين أن سلوكه نتيجة طبيعية لمجتمع يكرس الجمود في مفاصله كلها. لا يمكن أن تنبت زهرة وسط جدران؛ لأن مكانها الطبيعي البستان. الابتسامة التي نتطلع أن نراها في وجوهنا ووجوه من حولنا زهرة. هذه الزهرة لن تنبت على ملامحنا إلا إذا وفّرنا لها الأرض الخصبة التي تترعرع فيها. للأسف نحن لم نوفّر هذه الأرض التي تحيل وجوهنا إلى حدائق غنّاء، تزدهر بالبهجة، وتنعكس على مشاعر من يلمسها أو يقطفها. إن العثور على ابتسامة وسط مجتمعاتنا بات من المهمات الشاقة التي تعكس مدى ما وصلت إليه مشاعرنا من تصلب.

هل سمعنا أن أباً منح ابنه هدية لأنه ابتسم؟ هل شاهدنا تكريماً في مدرسة للمبتسمين؟ إذا لم نزرع بذور الابتسامة في أرواحنا مبكراً، لن نقطفها لاحقاً.

إن غياب الابتسامة ومرادفاتها في مجتمعنا يشكل أزمة حقيقية تلقي بظلالها السلبية على كل مناحي الحياة. إن بيئتنا بحاجة ماسة إلى المطر، فإذا لم يهطل من السماء فيجب أن نستمطره من

وجوهنا، ليروي الفيافي اليباب في أعماقنا. هذا المطر مصدرٌ رئيس لارتوائنا، ومحرك مهم لإنجازنا. إننا في أحيانٍ كثيرة لا نحتاج إلا لترحيب طفيف من الآخرين. هذا الترحيب قد لا يكون سوى ابتسامة عينين، أو عناق يدين.

العناق ينبغي ألا يكون بين الأجساد، وإنما أحياناً بالعيون، والكلمات. هذا الفعل الصغير له دور كبير في إفشاء الحميمية بين أفراد مجتمعنا، الذي يُواجه في هذا العصر تحديات جسيمة، تتطلب الكثير من التواصل الحسي والإنساني. نفتقر كثيراً إلى الشعور الملهم في المرافق العامة والخاصة، أحاديثنا تتسم بالجفاف والعموميات، متناسين التأثير السلبي لهذه المواضيع على معنوياتنا ومن ثم أدائنا. من النادر جداً أن نشيد ببعضنا بإسهاب، أن نبتسم لبعضنا.

نحن لسنا جدراناً، يجب أن نبتسم ونضحك، ونرحّب ونحتضن، لنتأمّل كيف تقوم الزهور باحتضان أصدقائها. تميل نحوهم بلطف، تلتصق أكتافها بأكتاف جيرانها بحبور، فتشكّل لوحة تُسرّ الناظرين. إننا أقرب إلى هذه النباتات الساحرة في ألوانها وروائحها وأحجامها المختلفة. وبوسعنا أن نصنع من بعضنا لوحة جذّابة بتنوّعنا، وتعاضدنا التلقائي، الذي سيشيع البسمة على الملامح. سيجعل منا أمّة مُبتهجة، هذه البهجة ستقودنا إلى الكثير من البناء والنماء.

أتطلّع حقاً ألا ندّخر أي انطباع إيجابي تجاه أي شخص، بل نشعره به. إن الظمأ ليس بالضرورة حاجتنا إلى الماء، بل إلى كلمة

تروي أرواحنا القاحلة. تخيّلوا الأثر الذي ستتركه هذه الكلمات في نفوس من نحب. ستفرش أرواحهم بعشب الفرح، هذا العشب الذي نتطلّع أن يملأ قلوبنا، ويمنحنا طاقةً تنافس طاقتنا البترولية، بل تتفوق عليها.

لا بد من أن نُدرك أن جلَّ الإنجازات في أنحاء المعمورة؛ مصدرها كلمة ساهمت في شحذ الهمم. فلنعمل على غرس مفاهيم الروح السخية في دواخلنا، لنكون مصادر غفيرة للإنتاج.

المجتمعات التي تعتمد على مصادر محدودة تنضب وتجف.

نمسك أشياءنا برفق وحذر، نخشى عليها أن تُجرح، في المقابل؛ نلقي الكلام على عواهنه، غير مُدركين أنه قد يخدش أرواحاً أثمن وأغلى من الأشياء كلها.

إنه من واجبنا أن نمنح بعضنا الكثير من الود والابتسامات والامتنان، فإذا كان الحجر يتأثر ويؤثر فكيف بالبشر؟!

نحن مطالبون بإحياء تراثنا الإنساني الذي يتجسّد في التواصل الكريم، وعدم الاقتصاد برسم البهجة على ملامحنا وملامح غيرنا. يجب أن نحطّم المشاعر اليابسة التي حوّلتنا إلى جدرانٍ متحركة، ولنتذكر أن الجميع بحاجة إلى دعمنا، صغيرنا وكبيرنا، جميعنا فقراء وبحاجة إلى تبرّعات معنوية.

أعظمُ النجاحات تأتي بعد أَقسى الصدمات

نشأ أنـدرو جلاستي (20 عاماً) وسط أسرة مضطربة. أبصر النور وهو يشاهد والده يضرب ويشتم ويتهكّم على أمه. انفصل والداه قبل أن يُكمِل السابعة. كان يعيش بين منزلين. يقضي أيام الأسبوع في منزل أمه، وفي نهايته ينتقل إلى منزل والده. وفي أحد الأيام، قبل أن يُكمل العاشرة من عمره، كان بانتظار والده في الموعد المعتاد ليقلّه إلى منزله. لكنه لم يأتِ. وعندما ذهب مع والدته إلى منزله لم يجداه. أخبرهما الجيران بأن والده رحل إلى ولاية أخرى. رحل من دون أن يودعه وشقيقته. غادر من دون سابق إنذار. تألم أندرو إثر هذا الرحيل المفاجئ. لكنه كان يتألم أكثر عندما يرى أمه تكافح وحدها بجسدها النحيل المثخن بالجراح من أجل تأمين لقمة العيش له ولشقيقته. لم يستسلم أنـدرو لحزنه الفادح. انكب على الاستفادة من الإنترنت. تعلم إنشاء المواقع والمدوّنات وهو في الرابعة عشرة من عمره. شرع بتصميم المواقع الإلكترونية لأترابه بمبالغ بسيطة. هذه المبالغ كانت تجلب الفاكهة والسعادة لمنزله المريض. إجادته لتصميم المواقع شجعته على تعلم البرمجة. كبر أندرو وكبرت أحلامه وإنجازاته. صمم مئات المواقع التي جعلت اسمه يتردد بين أقرانه كنجم. اليوم أندرو يُعدّ أحد أهم الشباب الواعدين في التدوين والتصميم وعالم الأعمال. أنشأ العديد من المواقع والمدوّنات الواعدة. أهمها «ليفيد». كما أسس شركة

لتعبئة المياه تحقق نجاحاً ملموساً، وهو لم يصل إلى الواحدة والعشرين من عمره بعد.

نحن في هذه الحياة أمام خيارين إما أن ننتصر أو نحتضر. معظمنا يختار الاحتضار حينما يحل يأسه محل أحلامه. عندما تتبخر كل أمنياته بسبب عقبة اعترضت طريقه أو صدمة تعرض لها. جميعنا بوسعنا أن ننتصر مهما قست علينا ظروفنا. الظروف الصعبة مدعاة للتألق. وذريعة عظيمة للتميز. فلمَ لا نستثمرها؟ إن أعظم نجاحاتنا هي التي تأتي بعد الهزّات والصدمات التي نتعرّض لها. فأطيب الثمار لا تهطل من الأشجار إلا بعد أن نهزّها، نهزّها بقوة.

العمل الجاد والمخلص عندما يأتي مدفوعاً بألم وجراح يحقق نجاحاً لا عين رأت ولا أذن سمعت. جميعنا باستطاعتنا الفوز بلا استثناء. تتفاوت الإمكانات بيننا بلا شك. لكن «جميع الناس فنانون بشكل أو آخر»، كما قال علي عزت بيغوفيتش. والذكي هو الذي يعرف بماذا يتميز، ليجني ثماراً وسعادة.

لو كل واحد منا أدرك أين تكمن موهبته وعمل على تنميتها وصقلها لن نجد يائساً بجوارنا. وحتى لو لم يملك أحدنا موهبة محددة باستطاعته أن يصبح ناجحاً إذا رغب في ذلك. هذه الرغبة تتطلب جهداً وعزيمة وليس نوماً واتكالية. يقول نوفاليس: «يستطيع جميع الناس أن يكونوا نوابغ لو لم يكونوا كسالى». وقد نجح ديفيد سميث، من دون موهبة ولا رأس مال في أن يصبح رجل أعمال واعداً.

فعندما فشل بإتمام رسالة الماجستير في الإدارة المالية، وطُرِد من عمله في البنك الذي أعطاه منحة دراسية، تذكّر أن لديه كُرَتَي قدم بتوقيع من اللاعب الإنكليزي الشهير جاري لينكر، الذي التقاه بعد خروجه من مطعم هندي في لندن. باع الكُرتين بنحو 3000 جنيه إسترليني عن طريق موقع المزاد الإلكتروني «أي بي». نجاحه في تسويق الكرتين دفعه لتتبع المشاهير لاعبين وفنانين في كل المجالات ومطاردتهم للحصول على تواقيعهم على تذكارات مختلفة. جنى مالاً وفيراً وعلاقات واسعة جرّاء التذكارات الموقعة التي باعها، ما مكّنه لاحقاً من افتتاح متجر لبيع التذكارات والتحف المختلفة من سائر أنحاء العالم. وتعرض حالياً في متجره مقتنيات ولوحات تشكيلية نادرة يتجاوز سعر الواحدة منها المليون جنيه إسترليني.

ديفيد، بعد أن حصد أول مئة ألف جنيه إسترليني من أرباح متجره بعث بهدية تذكارية ثمينة لمديره الذي فصله من البنك كتب على بطاقتها: «سيدي، شكراً لأنك فصلتني. فلو كنت ما زلت موظفاً في البنك لتدهورت ميزانيتي وحياتي عندما أضطر إلى تغيير إطار سيارتي».

يقول عباس محمود العقاد: «الصدمات نوعان، واحدة تفتح الرأس وأخرى تفتح العقل». فعلينا أن نُدرك أن الصعوبات التي تواجهنا، والصدمات التي نتعرّض لها بوسعها أن تكون مصدر بهجة غفيرة مستقبلاً، شرط أن نستقبلها برباطة جأش وعقل مفتوح. الصعوبات لا تقتل. الحزن هو القاتل.

كيف نُحوّل العِبارَة إلى عبّارةٍ؟

قبل عامين لم تكن تملك لينزدي مانسيو (19 عاماً) أكثر من 5 دولارات في حقيبتها. اليوم تملك أكثر من 5 ملايين دولار في حسابها البنكي. كانت لينزدي تحلم قبل أشهر قليلة بأن تقتني جهاز «آي باد»، بينما اليوم تعيش في حيرةٍ من أمرها هل تبتاع المنزل الذي يرقد بجوار الشاطئ أو الآخر الذي يغفو بمحاذاة النهر؟ لينزدي لم تربح جائزة أو تفوز في مسابقة. كل ما في الأمر أنها استثمرت عبارة سمعتها من ابنة عمها قالت فيها: «صورِكِ رائعة. لمَ لا تحترفين تصوير المناسبات؟».

استجابت لينزدي مباشرة لتشجيع ابنة عمها واستدانت من أمها 400 دولار لشراء كاميرا مستعملة احترافية من موقع المزاد الإلكتروني على الإنترنت «أي بي». بدأت مشروعها بتصوير الأفراح مجاناً. وكانت فور أن تنتهي من المناسبة تطبع بعض الصور وتهديها إلى الزوجين برفقة الصور الأخرى التي تضعها في «سي دي». حققت صورها المبكرة أصداء إيجابية، ما جعل البعض يمنحها مقابلاً مادياً للصور، على الرغم من عدم اتفاقها المبكر معهم على الحصول على أجر مقابل ذلك. استمرت أكثر من تسعة أشهر تصوّر مجاناً، حتى تلقّت أول عرض للتصوير بمقابل. كان مبلغاً زهيداً لا يغطي أجرة سيارة الأجرة التي ستقلها إلى مكان الزواج. أعجب الزوجان الجديدان بصورها، وكتبا في الفيس بوك لأصدقائهما: «شكراً

لينزدي... أحببنا زواجنا أكثر بسببك». انتشر اسمها تدريجياً، وباتت لا تستطيع الموافقة على كل العروض. استعانت بصديقاتها لمساعدتها بمقابل. توسّعت بعملها خلال فترة قصيرة. صارت تصور المناسبات بالفيديو أيضاً. في البداية كانت تؤجر كاميرا الفيديو. لاحقاً اقتنت واحدة. عرضت على أربع من صديقاتها التفرّغ للعمل معها للتمكّن من تلبية الفرص التي تُتاح لها. حققت نجاحاً كبيراً جعلها تنضم إلى قائمة أبرز 30 من روّاد الأعمال الشباب في أمريكا.

تعترف لينزدي بأنها «أقل موهبة من صديقاتها». لكنها قطعاً أكثر جدّية منهن. جدّيتها جعلتها تستثمر الكاميرا التي يحملها الآلاف في العالم على أكتافهم، وتحوّلها إلى مصدر دخل وثراء. جعلتها توظف صديقاتها التي كانت تشعر بغيرة من مواهبهن في التصوير في مشاريعها. إن الموهبة وحدها غير كافية للنجاح. يجب أن ترافقها جدية ومبادرة. الأنباء السعيدة عمياء لا تعرف طريقها إليك. أنت من يجب أن يبحث عنها حتى تجدها وتعانقها وترتبط بها ومعها.

لا تنسى الشاعرة الأمريكية كلاريسا بنكولا إيستس، الرسالة القصيرة التي تلقتها من صديقتها في أثناء مراهقتها، والتي جاء فيها: «حرفك ساحر، لا يشبهه شيء سوى الورود». تقول كلاريسا إن هذه الجملة القصيرة أشعلت فتيل الكاتبة في أعماقها، وجعلتها تكتب وتكتب من دون أن تشبع.

نشرت كلاريسا أعمالها بأكثر من 30 لغة، وكان آخرها العربية، والفارسية، والتركية، والصينية، والصربية. وحقق كتابها

«نساء يركضن مع الذئاب» نجاحاً عريضاً. تصدّر قائمة صحيفة «نيويورك تايمز» لأفضل الكتب مبيعاً لنحو 145 أسبوعاً. لحروف كلاريسا أجنحة تطير ولا تكفّ عن التحليق. ربما كنّا سنُحرم من هذه الموهبة لو لم تتلق رسالة تفتح شهيتها من صديقتها. فكما هناك أدوية تفتح شهيّتنا للطعام، هناك كلمات تفتح شهيّتنا للأحلام.

غالبيتنا سمع الكثير من عِبارات الثناء على مبادرات صغيرة قمنا بها. لكن القليل فقط هو من استثمر هذه العِبارات وأخذها على محمل الجد. حوّلنا الكثير من الأذكياء، لكن القليل من الناجحين. بوسعنا أن نكون من الناجحين إذا حوّلنا العِبارة الصغيرة التي نسمعها إلى عبّارة لا تهدأ، تمخر عُباب الأمل وتقودنا إلى أهدافنا.

أخطاؤنا... بُذورُ نجاحِنا

أفلس الأمريكي، هنري فورد، ثلاث مرات قبل أن يستطيع الوقوف على قدميه ليكوّن ثروة تقدر بنحو 188 بليون دولار أمريكي، بصفته أحد أغنى الأثرياء في العالم على مر التاريخ. الإفلاس الحقيقي ليس في المال ولكن بالأمل، هذا الأمل هو الذي يحوّل الأخطاء إلى جسور تنقلنا إلى غد أجمل. النجاح الهائل الذي حققه فورد وجعل من اسمه علامة تجارية يُقبِل الملايين عليها في مشارق الأرض ومغاربها، كان نتيجة أخطاء ارتكبها واستفاد منها. الخطأ يؤلم، والألم هو الذي يهُزّنا ويُحرّكنا ويُجرّدنا من التردد والخوف، ويمنحنا الشجاعة ومن ثم النجاح. إن من لم يتذوّق طعم الخطأ في حياته لن يتذوّق طعم النجاح. مشكلتنا أننا نعتقد أن الخطأ هو نهاية العالم، لكن في الحقيقة هو البداية، بل بداية البداية. ينبغي ألا يُخدّرنا هذا الخطأ ويثبط من عزائمنا، وإنما يجب أن يبعث في داخلنا الإصرار على مواصلة العمل. الخطأ هو التوأم السيامي للعمل، إنهما كيانان لا ينفصلان، فمن يعمل يجب أن يُخطئَ ويتعثّر. العدّاء الذي يتعثّر خلال السباق يصبح أكثر إرادة وعزيمة على الفوز، ستَنبِتُ له أجنحة معنوية تضاعف من سرعته وانطلاقه. الأخطاء مدعاة للمراجعة والتقييم والتفكير، إذا اجتمعت هذه العناصر معاً تحققت الجودة التي نتطلّع إليها أجمعين. إن الأخطاء المبكرة التي ارتبطت بصناعة الطائرات، وأدّت إلى تحطّم الكثير منها هي التي أهدتنا هذه الطائرات البديعة المتقدمة التي تحلق بنا في عنان السماء بخيلاء وثقة اليوم.

الأخطاء منحت البشرية اكتشافات أنارت وأسعدت العالم. فالعالم البلجيكي كورناي جان فرنسوا هايمانس، الحاصل على نوبل للطب في عام 1938، يعتقد أن أخطاءه هي التي جعلته مميزاً، فقد أدمن التجارب والمحاولات، واعتاد الخطأ حتى حقق فتوحات علمية في آلية تقدير ضغط الدم وتركيز الأوكسجين. وبعد فوزه بنوبل كتب لأبنائه الأربعة: «لم أكن أفضل من زملائي أبداً، لكن كنت أكثرهم تقبلاً للأخطاء، واستعداداً للنهوض من جديد». اعتيادنا الأخطاء يجعلنا أكثر تقبّلاً لها، وأقل حساسية منها، فمتى اقتلعنا هذه الحساسية من جوارحنا سننعم بحياة زاخرة بالانتصارات والبهجة. نشأنا في مجتمعات تُضخّم الأخطاء وتُرهبنا منها، فخسرنا حتى شرف المحاولة في سبيل الانتصار. إن الأشخاص الذين وقعوا في الأخطاء هم الذين استطاعوا أن يظفروا بالنجاح... المقاتل الذي لا يُصاب بجروح لا ينتصر، من يمتلئ بالجروح والإصابات يصبح أكثر قدرة على التحمل والمواصلة من غيره، الجروح مثل الأخطاء، تمنحُنا مناعة من التوقف والفشل. لا نولَدُ علماءً ومفكرين. الأخطاء هي بوصلتنا التي ترشدنا وتوجّهنا إلى الحكمة والنجاح والنهايات السعيدة.

يُشير العالم الياباني، كينيتشي فوكوي الحاصل على نوبل في الكيمياء عام 1981، إلى أن الأخطاء البحثية العديدة التي ارتكبها جعلته يغيّر مسار أبحاثه حتى وصل إلى نتائج مبهرة جعلته ينال أعلى الجوائز العالمية. الأخطاء مثل الإشارات في الطريق، توجّهك إلى الطريق السديدة. لا يمكن أن تصل إلى أي مكان من دون أن تنعطف أو تغيّر اتجاهك، المدن التي تخلو وتقل فيها هذه الإشارات تزدهر فيها الفوضى.

ينبغي ألا نصدّق أي ناجح لا يعترف بوجود أخطاء في حياته. هذه الهفوات هي التي تصنع الناجحين، فالأخطاء جزءٌ من حياتنا، يجب أن نتعايش ونتأقلم معها لنمضي إلى الأمام، ولا نجعلها ذريعة للإحباط والاستسلام. تأمّلوا في الكثير من الأشياء الجميلة والشهية حولنا ستجدون أنها ثمرة للكثير من الأخطاء والمحاولات. في حبة الفراولة توجد نحو 200 بذرة سوداء. هذه الحبات لم تزِدها إلا لذة وجاذبية. الأخطاء الصغيرة في حياتنا كتلك الحبات تمنحنا ثقة وتألّقاً.

جذورُ التغيير

جميعنا نشتكي من المجتمع، لكن ننسى أننا جزءٌ منه. لو كل شخص منا أدرك حجم تأثيره في محيطه لازدهرت مجتمعاتنا. إنني كلما تضايقت من تصرف وسلوك تذكّرت قصة الهولندي فان بروكين، فتعافيت وانشرح صدري. ففي عام 2005 انزعج بروكين عند انتقاله إلى حي جديد من عدم ترحيب جيرانه به. ظل نحو تسعة أشهر يشتكي لزوجته من الحي وعنجهية سكانه. شعر بغربة شديدة تحوّلت إلى كوابيس تطارده نهاراً ومساء. وازداد الأمر سوءاً كون طفله يشاطره الشعور نفسه. فليس هناك من يلعب معه، أو يقود درّاجته بجواره، كما في حيّه السابق. بعد معاناة نفسية طويلة قرر بروكين أن يبادر جيرانه بالتحية حتى وإن لم يردوا عليه لعلها تكسر الجليد بينه وبينهم، فردوا على تحيته بأخرى أكثر حرارة منها. وعندما رسم على وجهه ابتسامة رسم جيرانه ابتسامة أكثر اتساعاً على وجوههم. لكن كانت أجمل مبادرات بروكين على الإطلاق هي الهدايا التي تركها خلف أبواب جيرانه الثلاثة. كانت الهدايا عبارة عن تذكارات صغيرة لقوارب «الجاندولا»، التي يستقلها مواطنو مدينة البندقية «فينسيا» العائمة في إيطاليا في تنقّلاتهم، التي زارها بروكين حديثاً مع عائلته. أودع الهدايا أمام أبواب منازلهم برفقة بطاقة صغيرة كتب عليها عبارة واحدة: «أنا محظوظ بجيرتكم». كان لمبادرات بروكين أبلغ الأثر في تغير سلوكيات جيرانه نحوه. أصبحوا يبادرونه بالتحية والتهنئة، ويغمرونه وأسرته بالكثير من الاهتمام والمودّة والبطاقات

البريدية التي يبعثونها من أي مدينة يزورونها. وقد حظي بروكين بفضل هذه المبادرات الصغيرة بالأجواء التي كان يبتغيها في الحي الجديد الذي انتقل إليه، وتبدّدت المشاعر السلبية كلها، التي كان يدّخرها تجاه جيرانه، وحلّت محلها مشاعر إيجابية انعكست على معنوياته وارتياحه وأسرته. بإمكان أيٍّ منا أن يحقق هذا التغيير الذي حققه بروكين في محيطه من خلال مبادرات لا تكلف كثيراً. إن مجرد تحية أو ابتسامة بوسعها أن تمنحنا ومن حولنا الكثير من السعادة والسرور. لا يمكن أن تتحقق أمنياتنا الصغيرة والكبيرة دون أن ندفع المهر الذي يمنحنا شرف معانقتها. يقول غاندي: «كن أنت التغيير الذي تريد أن تراه في العالم». فما نصبو إليه ونسعى إلى الوصول له يبدأ منّا أولاً. ينبغي ألا نقلل من شأن أهميتنا في هذا المجتمع، فنحن أحد عناصره. وكلما ازداد عطاؤنا زاد أثرنا وتأثيرنا فيه.

إن التغيير الذي بوسعنا أن نساهم به ونُحدِثه لا يقتصر على الأمور المعنوية فحسب، وإنما ينسحب على كل شيء من حولنا. لاعب التنس الفرنسي الشهير، رينيه لاكوست، كان من اللاعبين المُستائين من قمصان لاعبي التنس، وقتئذٍ. فقد كان يحس أن القمصان التي كان يرتديها آنذاك تحد من إمكانات اللاعب وتؤثر سلباً في مستواه. واشترك مع عدد غير قليل من اللاعبين بالرأي. لم ينتظر لاكوست طويلاً لصناعة قمصان بأقمشة ومواصفات جديدة. قام شخصياً بمخاطبة أندريه جيلير، مالك ومدير مصنع شهير في فرنسا، للقيام بصناعة قمصان بأقمشة ملائمة تمتص الحرارة، وبتصميم يمنح اللاعب المزيد من الحرية في الحركة.

قدم إليه شرحاً مفصلاً وتصاميم متفرقة رسمها بنفسه. وبعد محاولات عدة بأقمشة وتصاميم متعددة أعلنا رسمياً عن قميص جديد في عام 1933 تعلوه صورة مطرزة لـ«تمساح»، وهو اللقب الذي أطلقته الصحافة الأمريكية على اللاعب الفرنسي لاكوست. واستقبل اللاعبون هذا القميص بترحيب بالغ، وانتشر انتشاراً كبيراً. وانتقل نجاح هذا القميص إلى الأسواق الأوروبية والأمريكية سريعاً، ولم يعد حكراً على لاعبي التنس، بل أصبح مطلباً للرياضيين والعامة على حد سواء. وأمسى لاكوست، الذي توفي في عام 1996، اسماً شهيراً ليس في ملاعب التنس فحسب، التي حقق فيها سبع بطولات كبرى «غراند سلام»، وإنما علامة تجارية يرتديها الصغار والكبار معاً حتى اليوم. وربما لم يعد يعرف الكثيرون أن لاكوست كان بطلاً رياضياً بارعاً، ومصنّفاً أول في اللعبة، لكن حتماً يعرفون أن لاكوست علامة تجارية يجسدها «التمساح»، الذي يستوطن قمصان الفتيان والفتيات في أنحاء العالم.

لاكوست لم يعجبه قميصه الذي كان يرتديه لاعباً فصمم آخر بنفسه. مات وظل قميصه على قيد الحياة، يقبل على اقتنائه الجميع بحماسة حتى اللحظة. إن جذور التغيير تبدأ منّا، فإذا لم يعجبنا شيء علينا أن نقوم بتغييره بأنفسنا ولا ننتظر أحدًا. فإذا تقاعسنا أنا وأنت عن المبادرة سنظل نشتكي ونأكل أنفسنا حتى نموت.

حتّى لا نَختَنِق

بدت على ملامح البريطاني، وليام لورانس براغ، الفطنة والذكاء في سن مُبكِرة جداً. كان يحرص على الاطلاع، بنَهم، على كتب الرياضيات والفيزياء التي يتركها والده خلفه. وكانت نقطة التحوّل في حياته عندما سقط وهو يقود دراجته الهوائية، وكان في الخامسة من عمره، وكسر ذراعه، فأجرى له والده، وليام هينري براغ، وقتئذٍ، فحصاً بالأشعة السينية (الإكس راي)، مستفيداً من تجارب العالِم الألماني، وليام رونتغن، في أول استخدام رسمي للأشعة السينية في أستراليا. انكب لورانس بعد هذه الحادثة على دراسة الأشعة السينية ومحاولة سبر أغوارها بعد أن لمس الأصداء الكبيرة التي تحدثت عن الفحص الذي أجراه له والده.

طلب لورانس من أبيه وهو لم يتجاوز العاشرة أن يشرح له الخطوات التي اتبعها خلال قيامه بفحص ذراعه بالأشعة. تفاعل والده مع طلبه، معتقداً أن إجابته ستخمد فضوله، بيد أنها أشعلت سعير الأسئلة في داخله. الشغف الكبير الذي أظهره لورانس في الاستكشاف والعلوم لفت أنظار الجامعات والكليات لاستقطابه، فحصل على عروض لمنح دراسية في أكثر من كلية. درس مُبكراً في كلية سان بيتر حتى تخرج منها، ثم التحق بجامعة إديليد عام 1904 قبل أن يكمل 14 من عمره لدراسة الرياضيات والكيمياء. في عام 1909 انتقل مع والديه وأسرته إلى بريطانيا وحصل على منحة دراسية في كلية

ترينيتي في كامبريدج. وأظهر براعة كبيرة في دراسته، واستطاع أن يجتاز الاختبارات وهو على سرير المرض بعد إصابته بالتهاب رئوي. وواصل وليام دراسته العليا في الفيزياء بكامبريدج، منشغلاً بموضوع «حيود الأشعة السينية»، المعني بالمعلومات التقنية والبنية البلورية والتركيب الكيميائي والخواص الفيزيائية للمواد الرقيقة، بالتعاون مع والده. وقد نالت النتائج التي حققها مع والده حول حيود الأشعة السينية اهتماماً علمياً كبيراً، آنذاك، حصلا بفضلها على جائزة نوبل للفيزياء في عام 1915، وهو في عمر 25 عاماً، باعتباره أصغر فائز بجائزة نوبل. ولم يكتف لورانس بهذا الإنجاز بل حصل على ألقاب عدة وجوائز لا حصر لها نتيجة جهده البحثي المتواصل وشغفه العلمي المُبهِر.

وعلى الرغم من النجاحات العلمية والعملية الكبيرة التي كان يُحرِزها لورانس في حياته إلا أنه شعر بحزن كبير عندما انتقل إلى لندن وأصبح لا يملك في مقر إقامته الجديد حديقة ينشغل بريها والعناية بنباتاتها. فقد كان يعزو الكثير من نجاحاته الفيزيائية إلى تلك الحديقة التي يقضي في رعايتها أوقاتاً طويلة. فحينما يشعر بخيبة أمل تُداهمه خلال أبحاثه يذهب إلى الحديقة لينشغل بها ومعها. ويتأمل كيف ترتفع بحبور أعناق النباتات التي غرسها ورواها بيديه قبل أن يعود إلى مكتبه فخوراً بإنجازاته في الحديقة التي تُلهمه لمواصلة الاستكشاف والبحث في الأشعة السينية وحيودها. وعندما فقد لورانس حديقته في لندن لم يجد خياراً سوى أن يعمل في حديقة عامة في دوام جزئي ليستطيع معانقة البذور والنباتات من جديد. ولم يكتشف رب عمله أن البستاني

الذي كان يأمره بتشذيب الأغصان ووضع السماد هو العالِم الفذ وليام لورانس براغ إلا بعد شهور عدة، إثر حديث جمعه مع زائر للحديقة رأى لورانس يتنقل بين الأشجار بزي البستاني.

تُشير التجارب التي نستلهمها من وحي المبدعين والعلماء إلى أن نجاحهم لم يكن نتيجة تفوّقهم ونبوغهم في مجالاتهم فحسب، بل لأنهم وفّروا لأنفسهم هِوايات ومجالات أخرى يتنفّسون من خلالها. الهوايات تهبُنا دائماً فرصةً للنسيان المؤقت والعودة إلى ما نحب بشوق وحنين.

نُخطئ كثيراً بتوجيه أطفالنا إلى الدراسة فقط، من دون أن نحثّهم على البحث عن هوايات تُبهجهم وتُكملهم. إن الهوايات مهما كانت صغيرة ستدر على المرء خيراً وفيراً بالقدر الذي تمنحه الوظائف الرئيسة، بل وربما أكثر كثيراً. فلا أجمل على الإطلاق من أن تجد مساحة تدفن فيها حزنك وضعفك وضجرك. إن العناية بالحديقة والرسم لم تمنع لورانس من الاستكشاف والحصول على نوبل، بل ساعدته على نيلها. الكثيرُ من بؤسنا يختبئ في رؤوسنا، التي شغلناها بشيء واحد فقط على الرغم من أنها مليئة بالغرف الشاغرة، التي تحتاج إلى من يرتادُها ويتردد عليها قبل أن يتراكم عليها الغبار فتخنُقنا.

قال الأوائل: «لا تضع كل البيض في سلة واحدة». ففي حالة سقوط هذه السلة قد تخسر كل بيضك. إذاً، ينبغي ألا نضع كل همومنا واهتماماتنا في سلةٍ واحدة. لمَ لا نُوزّع طاقتنا؟

ثمة مشكلة أزلية نعانيها كشعوب عربية، هي ازدراؤنا للهوايات وتقليلنا من شأنها، فمعظمُنا يغفل أهمية إيجاد الهوايات وممارستها، ويختزل العالم بأسره في عمله. فإذا شعر بتهديد أو فشل في مشروعه أو موقعه أضرم النار في أعماقه وأحرق نفسه والآخرين. إنّ الحزن كحبل مسلط علينا إذا لم نقطعه سيخنقنا. والمقص الذي سيفصل رقبة الحزن عن رأسه هو الفرح الذي ينتشر في عروق الهوايات. كيف نريد أن نبني جيلاً واعداً ونحن نحتقر المهن ما ظهر منها وما بَطُن، ونحط من قَدرِ الفنون؟

إن عالمنا مثل المنزل الذي يموج بالحياة، لكنّه تنقصه النوافذ. هذه النوافذ هي هواياتنا التي يجب أن نستنشق عبيرها وإلا فسنختنق. دعونا نبحث عن منتجعات نمضي فيها لحظات جميلة تُلهِمُنا وتُسعِدُنا. إن هذه المنتجعات ليست بعيدة كثيراً. إنها في دواخلنا. فقط علينا أن نعثُرَ عليها.

كم «تيسلا» مات بيننا؟

يكاد لا يخلو أي منزل حولنا من مبدع انصرف عن هوايته وشغفه بسبب تهكّم أو سُخرية. ضحّى الكثيرُ من أصدقائنا وأقاربنا بمواهبهم إيثاراً للسلامة. فخلت مجتمعاتنا من المبدعين إلا من رحم الله.

ترتبط السخرية دائماً بأي عمل إبداعي، أصغيراً كان أم كبيراً. لكن النجاح لا يُحالف سوى من يدير ظهره لمن يُثبط عزيمته ويُقلل من شأنه، ويمضي في سبيل تحقيق ذاته ومواصلة إبداعه.

التاريخ لن ينسى اسم نيكولا تيسلا، الذي تعرّض منذ أن كان مراهقاً إلى سيل من التهكّم إزاء اهتماماته وأفكاره، بيد أنها لم تزده إلا إصراراً على المواصلة والعمل. تيسلا الذي ولد في عام 1856 في قرية سميلجان الجبلية القريبة من جوسبيك التابعة للإمبراطورية النمساوية سابقاً -كرواتيا في العصرالحديث- كان ينعته رفاقه مبكراً بالمجنون، نتيجة جمعه حطام الأدوات المُهملة وانكبابه عليها. وكلما ازداد تهكُّمُ مَن حوله بما يقوم به ازداد تصميماً على المضي قُدُماً. فعندما كان يدرس الهندسة الكهربائية في معهد البوليتكنيك بمدينة غراتس النمساوية سخر الكثيرُ من زملائه من أسئلته ونقاشه مع أساتذته، كانوا يُعيّرونه ويَهزأون منه كلما طرح سؤالاً جريئاً. لكن لم يدع تيسلا الإحباطات تقوده إلى التوقف عن التساؤل، بل على

العكس تماماً ألهمته ليواصل قلقه ويُثبِت جدارته وتميّزه، مُردّداً: «المستقبل ليس لمن يسخر، وإنما لمن يتساءل ويعمل».

بالفعل كان المستقبل لتيسلا الذي قاده نجاحه للانتقال إلى أمريكا والحصول على جنسيتها، والأهم من ذلك إنجازه لنحو 700 اختراع مؤثر في حياة كل فرد منا. نيكولا هو رائد الأجهزة اللاسلكية، ويرجع إليه الفضل، بعد الله، في تطوّرها ونموّها. فهو من قام باختراع الريموت، والروبوت، والرادار، وغيرها من الأجهزة التي لا غنى لأي منا عنها في وقتنا الحاضر.

لم يُقلِع تيسلا عن الاختراع عندما قوبلت تجاربه الأولى بالتهكّم والازدراء؛ لأنه يثق أن المستقبل هو الذي سيُنصِفُه. ستذرُ الرياح كل الكلمات المثبطة، في حين ستُخلَّد الأعمال الجادة المبدعة. ينسى التاريخ كل من يسخر، لكنه يتذكر كل من يسحر أبصارنا وحواسنا بإنتاجه. لذلك وعلى الرغم من مرور سنوات طويلة على رحيل تيسلا ما زال الكثير من الدراسات ودور النشر والسينما تتحدث عنه بفخر وامتنان. ليس ذلك فحسب، بل صارت صوره تطبع على عملات نقدية في أوروبا، واسمه أمسى عنواناً لمعاهد تقنية وجامعات ومتاحف وشركات كبرى تكريماً لإنجازاته التي لا تنسى.

إننا لا يمكن أن نتخيّل حياتنا من دون الأجهزة اللاسلكية التي اخترعها تيسلا وغيّرت معالم التقنية في حياتنا. لا أدري ماذا سيكون العالم اليوم لو أن تيسلا أذعن للأصوات المُحبِطة وأضرب عن الإبداع؟!

إن ما آل إليه مجتمعنا اليوم هو نتيجة طبيعية لخضوعنا للأصوات المُثبطة التي دفعتنا إلى التخلي عن شغفنا وتطلّعاتنا، والاكتفاء بكل ما هو تقليدي درءًا للنقد.

تعاطينا السلبي مع الإبداع جعلنا نُسخاً مكرورة مشوّهة، تقوم بالأشياء نفسها على نحو متطابق، يصيب بالملل ويكرّس النمطية في أبشع صورها. هل من المعقول أن مجتمعاتنا العربية التي تعُجّ بالملايين من البشر لم تُنجِب عقلية مثل تيسلا؟ بالتأكيد أنجبت أعظم من تيسلا. لكنهم ماتوا مبكراً جداً جداً، ما حرمنا من الاختراعات... وحتى الابتسامات.

إن البُنية الفكرية العربية هشة وضعيفة لا تُقاوِم، وليس لديها مناعة ضد السُخرية والنقد، فتجدُنا ضعفاءَ أمام النقد والسُخرية والتهكّم. جملة واحدة بوسعها أن تجرّدنا من أحلامِنا وتعصُف بطموحاتِنا. علينا أن نؤمن أن من سيخسر هو من يسخَر، وسينتَصِرُ من يعمل ويصبر.

إننا يجب أن ندير ظهورنا للسلبيين، ونواصل حلمنا وعملنا. المُحبِطون لا يصنعون إنجازاً، وإنما نحنُ من يصنع إذا أردنا أن نصنعَ.

الحُلم المَخبوء

ظلت باربارا والترز طوال سنوات مراهقتها تتطلّع إلى أن تُصبح مضيفة طيران. تنتقل من طائرة إلى طائرة، ومن دولة إلى أخرى. كانت رفيقاتها في الفصل يرسمن ساعات وخواتم مرصّعة بالألماس على كتبهن ودفاترهن، لكنها كانت على النقيض تماماً، ترسُم طائرات بأجنحة ضخمة تطبَع عليها أول حرف من اسمها بخط عريض. وإذا ملّت من الطائرات، رسمَتْ صور قبّعات أنيقة كالتي تعتمِرُها المضيفات. كانت مأخوذةً بهذه المهنة على نحو بالغ، انعكس على حياتها واهتمامها. لكن عندما تقدمت باربارا للالتحاق بوظيفة شاغرة أعلنت عنها إحدى صحف نيويورك ارتطمت بالرفض بذريعة قصر قامتها. حاولتْ غير مرة، ولكن محاولاتها باءت بالفشل. حزنت كثيراً إثر تحطّم حلُمها أمامها. شعرت أنها أتعس إنسان على وجه الأرض، لكن من دون أن تعلم كانت في طريقها لتصبح أسعد من يمشي على البسيطة. فقد تابعت دراستها للغة الإنكليزية بتركيز حتى تخرجت بتفوّق من كلية سارا لورانس في نيويورك، قبل أن تلتحق بصفتها كاتبة بشبكة «سي بي أس» الشهيرة. وفي عام 1961 انضمت إلى شبكة «أن بي سي» باحثةً في برنامج «توداي شو»، ثم عملت في أكثر من برنامج ككاتبة ومراسلة ومقدّمة، حتى حطّت رِحالها في شبكة «آي بي سي». وهناك قدمت برامج عدة، من أهمها 20/20 الذي أنتجت عبره مواد خاصة مميزة ما زالت راسخة في أذهان الكثير من الأمريكيين وغير الأمريكيين في السبعينيات من القرن العشرين.

أدّى نجاحها المدوّي إلى أن تكون وجهاً لوجه مع زعماء العالم بأسره كمحاورة ومضيفة. التقت معظم زعماء العالم في حوارات خاصة. النجاح الكبير الذي حققته جعلها نجمة يُتابِعُها الملايين حول العالم، ويتمنون أن يحذوا حذوها ويصبحوا مثلها. يلتقون الملوك والمشاهير، وتتصدّر صورهم أغلفة المطبوعات والتقارير. ماذا لو كانت باربارا ظفرت بوظيفة مضيفة طيران، هل هذا سيكون حالها؟ أشك في ذلك. هل أحدنا يعرف اسم مضيفة طيران شهيرة؟ القليل منا يفعل. لكن الملايين يعرفون اسم والترز. خلاف الشهرة والمجد والمال الذي تملكه باربارا فهي تشعر بسعادة داخلية غامرة. أجابت والترز عن سؤال «نيويورك تايمز» حول حياتها الحالية فقالت: «أكاد أطير من الفرح. ألا يكفي أنني بصحة جيدة وما زلت أعمل؟»، على الرغم من تجاوزها الثمانين، إلا أنها ما زالت متّقدة، وتتمتع بإطلالة مميزة. ربما لو عملت مضيفة طيران لتقاعدت مبكراً، وظلّت في منزلها وحيدة. إن ما نالته والترز في اختيارها الثاني يفوق كثيراً ما كان ينتظرها في خيارها الأول. كانت تأمل بأن تكون مضيفة طيران، لكنها أصبحت مضيفة لأهم البرامج الحوارية التلفزيونية في العالم. أحياناً أحلامُنا تُسجِنُنا، قضبانُها أكثر شراسة من تلك المغروسة في الزنزانات والسجون. يجب أن نقتلِعَ السجون المزروعة في داخلنا على شكل أحلام كلاسيكية، ونبدأ التفكير بأحلام جديدة لم يسبق أن منحناها وقتنا وخيالنا. لن تتاح لنا جميعاً الفرصة التي حظيت بها باربارا عندما رُفضت كمضيفة طيران. ربما نقع في مصيدة أحلامنا التقليدية. ونحصل على ما نبتغيه. وتسجِنُنا وظائفُنا حتى نهايتنا.

إذا كنّا نشعر بتعاسة في أعمالنا فنحن قطعاً معتقلون في سجون شيّدناها في خيالنا بأنفسنا وندفع إزاءها ثمناً باهظاً من أعصابنا ومزاجنا وعمرنا. ينبغي ألا نحصر حياتنا في حُلُم واحد. علينا أن نَطرح أكثر من خيار أمامنا قبل أن نُسلّم حياتنا لمكان قد لا تستحقه. ولا عيب في أن نُغادِره عندما يخذلنا. أثق أنه ثمة حلم مخبوء في مكان قصي في داخلنا. يجب أن نعثُر عليه. قد نحتاج إلى وقت طويل قبل الوصول إليه، لكن ينبغي ألا نكفّ عن الاستكشاف والمحاولة. الأشياء الجميلة ترهقك قبل الحصول عليها، لكن طعمها شهيٌّ، أكثر مما تتصوّر.

أقصَرُ طريقٍ إلى السَعادة

عاش الأمريكي دان كيرني نحو 24 شهراً عصيباً بعد تخرّجه من جامعة ويتشيتا الحكومية في ولاية كانسس. كان يتطلّع إلى دخول عالم التجارة، لكنه لم يستطع. لم يكن يملك فكرة ولا مالاً. كل ما يملكه رغبةً في خوض تجربة الأعمال الحرة. في عام 1958 هطلت عليه فكرة افتتاح مطعم بيتزا، نظراً إلى نُدرتها في أمريكا آنذاك، لكن بقيت مشكلة التمويل. عرض وشقيقه الأصغر فرانك الفكرة على أمهما. أعارتهما 500 دولار على الفور. هذا المبلغ الصغير كان كفيلاً بافتتاح مطعم «بيتزا هت» في ويتشيتا. افتتح الأخوان بعد نحو 5 أشهر فرعاً ثانياً للمطعم. لم تمر سوى ثلاث سنوات على افتتاح أول فرع حتى انتشر سريعاً في المدن والولايات القريبة والبعيدة، وبات داني وفرانك يفتتحان فرعاً جديداً لمطعمها بمعدل كل يوم. في عام 1972 بلغ عدد فروع «بيتزا هت» ألف فرع في أمريكا. اليوم لدى «بيتزا هت» ما يزيد على 13 ألف فرع حول العالم.

نجاح «بيتزا هت» الكبير الذي جعلها إحدى أكبر العلامات التجارية في العالم حالياً يعود إلى الخمسمئة دولار التي قدمتها والدة المؤسسين. لو لم تدعمهما والدتهما ربما لم يكن هناك ما يسمى حالياً بـ«بيتزا هت». كانت خمسمئة نعم، لكنها من أمهما، فتضاعفت ملايين المرات. الأم هي الأم في كانساس أو البحرين، في الرياض أو أم القيوين. رعايتها وحنانها يجعلان الأشياء الصغيرة كبيرة. في كنفها تكبر الآمال وتصغر الآلام.

في بلدة هيرتسوجيناوراخ بألمانيا قصة عظيمة أخرى، بطلتُها أم لن ينساها التاريخ. هذه الأم تبرّعت بغرفة غسيلها لابنيها أدي ورودي داسلر اللذين لم يملكا - وقتذاك - مالاً لتأجير محل لصناعة وبيع الأحذية. افتتحا الأخوين في عام 1924 متجرهما الخاص في غرفة غسيل أمهما المتواضعة المتاخمة لمطبخها. لقي المحل إقبالاً جيداً، لكن توجّهات الشقيقين السياسية المختلفة حالت دون استمرار شراكتهما. انفصلا رسمياً في عام 1947. افتتح أدي داسلر متجر «أديداس»، المشتق من اسمه الأول وجزء من اسم العائلة. في المقابل، افتتح شقيقه متجر باسم «بوما». والآن «أديداس» و «بوما» تُعدّان من أهم العلامات التجارية في العالم ببيع المُستلزمات الرياضية. على الرغم من اختلاف الشقيقين، إلا أنهما متفقان تماماً على أن سبب نجاحهما يعود إلى أمهما.

كانا يافعين آنذاك ولا يملكان أي خيار للحصول على مكان يصنعان ويبيعان فيه منتجاتهما إلا عبر أمهما، فببساطة لو لم تمنحهما أمهما غرفة الغسيل الصغيرة تلك لما امتلأت غرف الملايين حول العالم بهذه المنتجات عالية الجودة. علينا أن نتذكّر أمهما كلما لمحنا العلامتين التجاريتين البديعتين مطبوعتين على حذاء أو حقيبة أو قميص، فقد كانت خلف هذا الانتشار والنجاح الهائل.

الأم لا تمنح أبناءها النجاح بنقودها، أو عبر ممتلكاتها فحسب، بل حتى عبر كلماتها. المنتج والكاتب الأمريكي، مارك تشيري، كان

يعيش في عام 2002 أزمة نفسية كبيرة، نظراً إلى عدم قدرته على كتابة نص جديد يعود به إلى عالم الإنتاج.

لكن خلال زيارته لوالدته، ألهمته للقيام بكتابة عمل يتناول حياة ربّات البيوت في الطبقة المتوسطة، التي لم يسبق أن تم تجسيدها على الشاشة بتفصيل. شرع تشيري في تحويل العمل من مخيلته إلى الورق فور أن انصرف من منزل أمه. سمّاه «ربات بيوت بائسات». اليوم يحتفل هذا المسلسل بموسمه الثامن والأخير. وصل عدد مشاهدي الحلقة الواحدة منه في عام 2010 إلى نحو 51 مليون مشاهد، بينما بلغت إيرادات كل نصف ساعة بث له نحو ثلاثة ملايين دولار أمريكي. أجزم بأن تشيري لو لم يزُر أمه في تلك الليلة لظل بائساً ويائساً حتى اللحظة.

زوروا أمهاتكم، لن تعودوا منهن خائبين. إذا لم تظفروا بدعواتهن ودعمهن وتشجيعهن؛ فعلى الأقل ستظفرون بابتساماتهن. أمك... أقصرُ طريق إلى السعادة.

ثلاثُ أصابعِ

كايل ويلز (22 عاماً) شابٌ بلا قدمين. يسير بأصابعه عبر كرسيه الآلي المتحرك. تقوده ثلاث أصابع فقط إلى أي مكان في مانشستر ببريطانيا. إلى الكلية، وإلى عمله في مركز ترافورد التجاري، وإلى صديقه الهندي أنيس سيد في مجمع لاوري التجاري. جال بريطانيا كلها بأصابعه الثلاث النحيلة الصغيرة من دون مساعدة أحد، أي أحد، حتى والده. يحرص كايل على متابعة فريقه المفضل (مانشستر يونايتد) عبر مشاهدة مبارياته في ملعب (أولد ترافورد). يرى أن التلفزيون لا يمنحه الأجواء الحقيقية والممتعة. يُدرِك أن التشجيع من وراء الشاشة لا يُغني ولا يُسمن من جوع. يقول: «كيف سيسمعني المهاجم هيرنانديز عندما أهتف له وأنا خلف الشاشة؟». كايل الذي يدرس الإخراج السينمائي، يعشق الاحتفالات والمناسبات والمباريات. لا يفوّت أي مناسبة، أكبيرةً كانت أم صغيرةً في مانشستر من دون أن يحضرها، مرتدياً قبّعته الزرقاء الداكنة وابتسامته الطفيفة. يرى أن الاحتكاك مع الناس ومراقبة نبضهم أعظم إلهام للقيام بعمل إبداعي. أكثر ما يُحزن كايل هو الجلوس في المنزل ومشاهدة التلفزيون. يعتقد أن «المنازل سجون ترتدي أقنعة»، وهو لم يرتكب أي جريمة ليمكث فيها ولو لِماماً. لا يذهب إلى منزله إلا للنوم أو للالتقاء بأطفال أخته القريبين من قلبه. كايل يأكل ويُذاكر ويقرأ ويسترخي في الطرقات والمجمّعات التجارية. يخشى أن يهدر أي دقيقة من دون أن يستمتع بها ومعها. سعادة ويلز تكمن

في الاستكشاف والتعرف إلى أشياء جديدة. أجمل ما كتب كايل، من النصوص السينمائية، التي قدّمها إلى جامعته كانت خلال حضوره مهرجانات أو فعاليات عامة. أجمل الأفلام التي نفّذها استوحاها من مشهد في حديقة أو في كرنفال. يُؤمن أن الإزعاج الحقيقيٍ هو الصمت. وأكثر ما يزعجه «ثرثرة الصمت». التقيت كايل كثيراً في الترام (المترو)، وفي مجمع لاوري والجامعة، وفي كل مرة أحاول أن أتقدم فيها نحوه أتراجع. يقمعني ترددي. في الأسبوع الماضي فقط وحينما هممت بالتقدم تجاهه وقبل أن يغشاني الهلع ناداني بأصابعه. تعثّرت وأنا أتجه نحوه، لكن انتشلني بابتسامته. تحدثت معه ومع صديقه أنس مطوّلاً جداً. وأكلتُ وصوّرت معهما. حزنت جداً على حالي وحال من هم مثلي، ممن يتذمّرون ويحزنون بسبب خسارتهم لمحاولة أو تعثّرهم في مشروع، في حين أن كايل الذي لا يملك سوى ثلاث أصابع يتحلّى بهذا القدر الكبير من الإصرار والحماسة والطموح. يعمل ويدرس ويتنزّه ويخرج متسلّحاً بإرادته وابتسامته. أسرتني طريقته في تحويل كل الأتراح إلى أفراح. عندما سألته عن أمه، أجاب أنها توفيت، وحينما تأسّفت وعبّرت له عن حزني واعتذرت عن سؤالي، رد عليّ وابتسامة كبيرة تعلو ملامحه: «أنا محظوظ جداً. لقد توفيت وأنا في الثالثة من عمري. ربما لو توفيت حديثاً لما شُفيت من ألم فراقها حتى الآن».

إن الحياة معقّدة ومليئة بالصعوبات والمنغّصات، لكن القليل منّا فقط هم الذين يفتحون نوافذ للأمل والفرح في أفئدتنا وصدورنا. يمتلكون روحاً متألّقة على الرغم من كل ما يعانونه من ألم وفقد.

لا يوجد ألـم أكثر من أن يفقد الإنسان جـزءًا من جسده أو عائلته. لكن لا يحرم الله أحداً، يعوّض جميع المحرومين بأشياء لا تُرى، لكنها تضيء، تمدّهم بطاقة لا تنضب، وتجعلهم أكثر صلابة ورباطة جأش وقُدرة على المواجهة والفوز. يمتلكون جلوداً سميكة تمنعهم من الإحباط. يرتطمون بعراقيل، لكن لا يشعرون بها. يتابعون وينتصرون، بينما البقية يتعثرون ويتوقفون. المقاتل الفذ ليس الذي لا يتعرض لجروح وإصابات، وإنما الذي يصمد بوجه الألم والضربات. إن أهم انتصاراتنا بدأت بمعاناة، وانتهت بتتويج. إن الشمس قبل أن تشرق تغيب كثيراً، وقبل أن تصعد الطائرة عالياً، تحبو طويلاً. وقبل أن ينطلق المتسابق ينحني قليلاً. وقبل أن نفرح نتألّم شديداً.

صمد كايل أمام عاصفة الألم بثلاث أصابع فقط. حقق الكثير ويؤمن أنه سيُحرِز أكثر.

إن النجاح لا يحتاج إلى أقدام، بل إلى إقدام.

أُحبّك

كنت أتردد على مكتبة جامعتي في مدينة الإعلام بمانشستر طوال الأسبوعين الماضيين؛ للانتهاء من متطلّب دراسي. كانت المكتبة خالية إلا من اثنين، أنا ورجل يبدو في العقد السادس من عمره. كنا نجلس أمام بعضنا البعض نحو سبع ساعات يومياً من دون أن ينبس أحدنا ببنت شَفة. فكّرت أن أقرأ عليه السلام في أحد الأيام. لكن خشيتُ أن أقطع حبل أفكاره، لا سيما وأنني ألمس حجم انشغاله وجديته. فهو لا يلتفت يميناً أو شمالاً. جلّ تركيزه على الشاشة، التي أمامه. في أحد الأيام جلس بجوارنا طالبان وكانا يتحدثان بصوت عالٍ مع بعضهما بعضاً، نهرهما الستيني على الفور، وطلب منهما أن يخفضا صوتهما، أو سيبلغ رجال الأمن في الجامعة. لم تمض لحظات إلا غادر الشابان المكتبة، وربما الجامعة برمتها. هذا الموقف دعاني إلى قمع أي مبادرة مقبلة نحو فتح أي موضوع معه أو إلقاء السلام عليه على الرغم من أن فضولي يأكلني؛ لأعرف ماذا يدرس؟ مرّت أيامٌ طويلة علينا ونحن كأبكمين لا نتكلم. في لحظة تاريخية، رن هاتفه الجوال والتفت عليّ قائلاً: «هل تسمح لي بالإجابة على الهاتف». فأجبته مبتسماً: «لا توجد أي مشكلة على الإطلاق. تفضل». تحدّث طويلاً مع زوجته وابنته. وفهمت من كلامه أنه شارف على الانتهاء من البحث الذي يقوم به، ويشتمل على 5 آلاف كلمة. أغلق السماعة وعدنا إلى دوّامة الصمت. في اليوم التالي، جاء إلى المكتبة بعدي. ألقى عليّ تحية صباحية بعد أن وضع جهازه على الطاولة، ثم بادرني بسؤال:

«ماذا تدرس، يبدو أن لديك واجباً دراسياً تعمل على الانتهاء منه؟».
أجبته باقتضاب، على الرغم من أنه كان بودّي أن استرسل وأسهب. لكن كلما تذكّرت لهجته عندما خاطب الطالبين المزعجين قاومت شهوة الكلام، التي تغويني. عندما فرغت من إجابتي القصيرة، وقبل أن أقوم بالاستفسار عن تخصصه تدفق بغزارة. أخبرني أنه يدرس الماجستير في تصوير الحيوانات في البرية. ويقوم حالياً بكتابة بحث عن تصوير الحيوانات في بيئتها من دون تعريضها للأذى، أو تغيير نمط حياتها. فهو يناقش في بحثه بعض الأفلام التي انتهكت حقوق الحيوان واستفزّته في سبيل لقطات مثيرة. كما دعاني إلى حضور الفيلم، الذي قام بتصويره مع زميليه في إحدى غابات أفريقيا، وسيعرضه في آذار/مارس المقبل، في صالة العرض الرئيسة بالجامعة. توقعت بعد هذا الحديث الطويل أن علاقتنا ستأخذ منحى تصاعدياً. لكن باءت توقعاتي بالفشل. لقد عادت وتيرة علاقتنا إلى الصفر. في اليوم التالي صافحته بتحية فور وصولي إلى المكتبة، بيد أنه لم يعبأ بها، أو ربما لم يسمعها. لم يرد. لم أكترث أنا الآخر، انشغلتُ ببحثي. في المساء، فجأة وبلا مقدمات ونحن في المكتبة قفز من كرسيه. قال بصوت يمتلئ سعادة: «انتهيت... انتهيت». قال وهو يوجه حديثه إلي: «الآن سأحتفل». لم ينتظر إجابة مني أو تهنئة. قطف جواله من الطاولة وقام بالاتصال على ابنته. قال لها بصوت يشبه الصراخ: «انتهيت يا ابنتي. أخيراً انتهيت. حبيبتي سأعود إليكِ وأمك غداً. لم يتبق سوى مراجعة البحث وإرساله إلى أستاذ المادة. لم أكن أصدق أنني سأنتهي. أحبك، أحبك». وأخذ يغني على

مسامعها أغاني عدة بلا انقطاع. ثم قَبّلَ السماعة غير مرة. وودّعها قائلاً: «أحبك». وطلب منها أن يتحدّث مع أمها وقال لزوجته: «انتهيت يا حبيبتي، سأعود إليكما غداً. أحبك». أغلق السماعة والتفت نحوي مبتسماً. دعا لي بالتوفيق في واجبي. وقال لي: «تعبت جداً. أسكن في فندق قريب من الجامعة منذ أسبوعين بعيداً عن أسرتي، التي تعيش في نيوكاسل. مشتاق لزوجتي وابنتي (13 عاماً). إلى اللقاء».

خرج جاري السابق من المكتبة. لكن لم يخرج من حياتي. تعلّمتُ منه أن الاحتفال بالإنجازات، ولو صغيرة ينبغي ألا يكون مادياً، بل معنوياً. الاحتفال لا يعني رحلة سفر أو هدية. لقد خنقتني العبرة عندما سمعته يهتف لابنته: أحبك... أحبك. فكيف كانت مشاعرها هي وأمها عندما سمعاها منه؟ إن أطفالنا لا يحتاجون إلى مالنا وهدايانا فحسب، بل إلى كلماتنا أيضاً. الكلمات تهز القلوب طرباً وفرحاً. لِمَ لا نختتم أحاديثنا الهاتفية مع زوجاتنا وأطفالنا بـ«أحبك»، هذه المُفردة السحرية. إن الأطفال لا يرثون ممتلكاتنا، وإنما كلماتنا أيضاً.

علينا أن نتدرّب كيف نقفز كلما حققنا نصراً ولو صغيراً. من لا يتعلّم كيف يقفز صغيراً، لن يقفز كبيراً. يقول لاعب الجمباز الصيني، لي شياو، الذي حصل على ميداليتين أولمبيتين: «أبي كان يدرّبني على القفز منذ أن كان عمري 3 سنوات. النهايات الجميلة تحتاج إلى تدريب طويل ومبكر».

طارِد الخوفَ تَطرُده

كان ديفيد يرتعش كلما طلب منه أستاذه أن يقدم نشرة أخبار افتراضية أمام زملائه في الفصل بجامعة بول ستيت في ولاية إنديانا بأمريكا. تهتز الورقة التي يقرأ منها، ويهتز معها الفصل ضحكاً وتهكّماً. لا يتذكّر ديفيد أنه استطاع إكمال عرض كامل أمام رفاق فصله من دون أن يتعثّر في جملة، أو يغرق في عرقه. يعتقد كل من يشاهد ديفيد بعد أن يفرغ من أي عرض أنه شارك في ماراثون طويل، أو خرج من حلبة ملاكمة؛ إثر ملابسه الملطخة بالعرق ووجهه المكسو بالأرق والقلق.

انعكس أداؤه المرتبك على درجاته الدراسية. حصل على درجات متدنية لم تسعفه للحصول على فرص وظيفية كان يتطلّع إليها. كان الخوف من التحدث أمام الجمهور نقطة ضعفه الكبيرة. قرر ديفيد أن ينسى التلفزيون ويتّجه إلى الإذاعة هرباً من الخوف الذي يأتي بمعيّة الجمهور والكاميرات. كان أداؤه الإذاعي جيداً. لكنه كان يتأخر على مواعيد التسجيل. ولا يقوم بالإعداد للبرامج القصيرة، التي كان يُشارك بتقديمها. بعد إحدى حلقاته الإذاعية سأله المخرج أن يترك الإذاعة. قال له: «لم أشعر يوماً أنك تستمتع بالعمل هنا. ابحث عن مكان لا تود أن تخرج منه عندما تنتهي منه». ظلت كلمات المخرج تطارده ريب المنون. ظل يبحث عن هذه المهنة، التي لا يود أن يغادر أروقتها بعد أن ينتهي دوامه الرسمي من دون جدوى.

عمل في صحف محلية صغيرة، وأقسام علاقات عامة، ووكالات أخبار. بيد أنها كانت مهناً غير شهيّة بالنسبة إليه. لا يستمر فيها طويلاً. وظيفة استمر فيها شهراً، وأخرى لم يكمل فيها تسعة أيام. في ليلة شتاء قارسة، رافق أحد زملائه إلى مبنى محطة تلفزيونية محلية في مدينته. كان صديقه يقوم بمونتاج تقرير تلفزيوني في غرفة خاصة، في حين كان ديفيد يتجوّل في مرافق المحطة. انتهى صديقه من المونتاج ولم ينته ديفيد من التنزّه في الاستوديوهات. شعر ديفيد بحميمية تجاه المكان. قرر مباشرة، وقتئذٍ، أن يقاوم الخوف، الذي ينتابه أمام الكاميرا والجمهور. حشد أقاربه في غرفة صغيرة وقام بتلاوة أخبار كوميدية أمامهم. ابتسموا في محاولته الأولى. لكنهم لم يضحكوا. في المرة الثانية، ضحكوا وقهقهوا. المحاولتان الصغيرتان شجّعتا ديفيد قليلاً على مواجهة الكاميرات والجمهور. ظل يتصبب عرقاً في كل تجارب الأداء خلال بحثه عن وظيفة. رُفض من ست محطات تلفزيونية، بيد أنه انضم للسابعة. قال له المحرر، الذي وافق على تعيينه، وهو يقدم إليه منديلاً: «لا بأس أن تعرق. لكن لا تنسَ أن تحمل منديلاً في جيبك لتمسح العرق من على جبينك قبل أن تظهر على الشاشة». منذ ذلك الحين وديفيد يحتفظ بمنديل في جيبه، ليس ليمسح به عرقه، بل دموع الفرح التي تهطل من عينيه، كلما خرج من الاستوديو فائزاً بحضور كبير لبرنامجه «ليت نايت شو مع ديفيد ليترمان».

ليترمان، بدأ حياته خائفاً مرتبكاً من الجمهور والكاميرات، لكنه عندما أَلِفَها صار نجماً يُتابِعه الآلاف داخل الاستوديو، وخلف الشاشات.

تدرّج في مشواره من مقدّم نشرة طقس، وتقارير تلفزيونية، وبرامج صباحية إلى أحد نجوم البرامج الكوميدية في أمريكا والعالم. نال برنامجه جائزة «الإيمي» الخاصة بالإنتاج التلفزيوني 12 مرة، في حقول عدة، خلال 20 عاماً. وحصل على جوائز مختلفة في التقديم والكتابة. وقدّم حفل الأوسكار 67 على الهواء في عام 1995، أمام أعظم الأسماء السينمائية المعاصرة.

ثمة سعادة حقيقية تختبئ خلف أشياء نخشاها. ما علينا سوى أن نزيحها من أمامنا؛ لنلمس وراءها ما نبتغيه، وما نشتهيه. إن الخوف لا يستحق كل هذا الهلع.

طارِد الخوف تَطرُده. إن الخوف كاللص يهرب عندما تلحقه.

ذخيرةُ الأحلام

معلم توماس أديسون كان يناديه بالغبي، وطُـرِدَ من عمله بذريعة افتقاره إلى المخيّلة الإبداعية، قبل أن يخترع المصباح ويمدّنا بالضوء. لا يمكن لأحد أن يُطفِئَ أحلامنا سوانا. فلو استسلم أديسون للكلمات المثبطة، التي اعترضت طريقه لَما أضاء هذا العالم، ولَما أهدانا نحو ألف اختراع. لم تُظلم أمريكا منذ أن أبصرت النور إلا عند وفاته يوم 18 تشرين الأول/أكتوبر 1931، حينما تم إطفاء كل مصابيحها تكريماً وتقديراً وامتناناً لِما قام به تجاه البشرية.

تعرّض جو شوستر هو الآخر لانتقادات لاذعة في بداية مشواره. تقدم إلى أكثر من مجلة للعمل رساماً دون جدوى. كان ينتقل من خيبة إلى أخرى. أوصدت الوظائف والأبواب أمامه. اختتم رئيس تحرير إحدى المجلات مقابلة وظيفية معه قائلاً: «لو كنت مكانك لاتجهت لأي مهنة سوى الرسم. أنت لا تملك الموهبة أبداً». مَن قيل له إنّه لا يملك موهبة صنع لاحقاً شخصية «سوبرمان» الكرتونية. ألهم ملايين الرسامين في أنحاء العالم. نال مئات الجوائز بفضل إسهاماته في مجال الرسومات الكرتونية. أنشئت أقسام فنية في جامعات وكليات ومعاهد باسمه. كتبتْ عنه عشرات الكتب والمقالات.

إن الكلمات مثل السلالم تقودنا إلى الأعلى، أو إلى الأسفل. لكن نحن من يحدد الخيار. لقد اختار شوستر أن يتسلق الكلمات

المحبطة ويصعد بواسطتها إلى القمة متوّجاً بموهبته ورباطة جأشه. تحوّل شوستر من رسام مغمور إلى محطّ إعجاب الآلاف حول العالم.

كان لاعب كرة المضرب، ستان سميث، أيضاً، محل تهكّم مدرّبه وزملائه عندما بدأ اللعب. قال له زميله: «يدك لا تصلح للعب، بل للزينة. هل شاهدتها وأنت تسدد الكرة؟ إنها مضحكة». لكن سميث لم يعبأ بتهكّم زميله. استمر بالتدرّب واللعب حتى أحرز بطولتي غراند سلام: (ويمبلدون 1972، أمريكا المفتوحة 1971)، بالإضافة إلى عشرات الألقاب الأخرى. وبعد الانتصارات المتعددة التي حققها ستان، صارت يده رمزاً للقوة والإلهام، بعد أن كانت وقوداً للتندّر والسُخرية. لم يكتف ستان بنجاحاته كلاعب. أضاف إليها الكثير من النجاحات كمدرب، فحظي بتقدير واسع على مستوى العالم بفضل النجاحات الكثيرة التي انتزعها.

أديسون وشوستر وستان وغيرهم انتقموا من لكمات الكلمات بالعمل الدؤوب والاستمرار في المحاولة... فحصدوا الفوز. إن النجاح أبلغ رد على من يشكك في مواهبنا، سيُسعدنا وسيؤلم من وقف بوجه أحلامنا، إن زر الأحلام يعمل تلقائياً في داخلنا منذ أن نولد. لكن بعضنا يُطفئه إثر كلمة سمعها أو نصيحة تلقاها. ينبغي ألا تغفو أحلامنا. إذا غفت تثاءبنا وغطّت آمالنا في سُبات عميق.

يتعرض معظمنا إلى كلمات قاسية في المدارس والجامعات والإنترنت وحتى في الشارع، لكن أوفرنا حظاً من لا يدعها تعترض

طريقه، بل تدفعه إلى المزيد من المثابرة والكفاح. لا توجد رحلات مباشرة إلى أحلامنا. نضطر إلى التوقف والتأمل قليلاً قبل استئناف الرحلة. ليس هناك طريق مستقيمة للنجاح. الطريق إلى النجاح مليئة بالمنعطفات والعراقيل. والأهم هو الوصول إليه مهما تكبّدنا من صعوبات، وواجهنا من كلمات.

لم يصل الكثير من الناجحين إلى مبتغاهم إلا بعد أن تذوّقوا مرارة الألم والتهكّم. الفرق بين الناجح وغيره هو أن الناجح واصَلَ مسيرتَه، وتحامَلَ على الامه، وقطفَ ثمار صبره، في المقابل، استسلم غيره لليأس والإحباط. إن الأشياء الثمينة مدفونة. تحتاج إلى الكثير من الاستكشاف والبحث والشقاء لنصل إليها كالذهب واللؤلؤ والنفط.

إن التهكّم على أحلامنا وآمالنا يمدّنا بطاقة تدفعنا لتقديم أفضل ما نملك. يمنحنا ذخيرة تجعلنا نركض نحو أحلامنا بسرعة قياسية لا يملكها أسرع عدّاء.

لماذا أحب «إيمي»؟

لدى جاري البريطاني طفلةٌ اسمها إيمي. لم تتجاوز الخمس سنوات بعد، صغيرة لكنها كبيرة في تأثيرها. التقيتها أول مرة في المصعد مع والدها وجارةٍ أخرى قبل نحو شهرين، لكن أشعر أنني ما زلت عالقاً معها في المصعد حتى اللحظة. لقد فاجأتني إيمي عندما عبّرت عن إعجابها بحقيبة جارتنا، وهي تفغر فاهها، قائلة: «واو، حقيبتك جميلة». ثم هزّت والدها قائلة: «يجب أن تشتري مثلها لأمي». حينها احتضنتْها جارتُنا المشتركة بحرارة، والسعادة تهطل من عينيها.

كلما غادرتُ المشهد الذي دار في المصعد عدتُ إليه من جديد، تعلّمت من «إيمي» درساً لن أنساه، وهو أن كلمة صغيرة ربما تصنع فرحاً كبيراً. كنتُ شاهداً على مهرجان الفرح الذي اندلع من عينَي جارتنا إثر كلمات صغيرة من فتاة صغيرة. استرجعت في ذاكرتي عشرات المواقف، التي غادرتُ فيها أقرباء وغرباء من دون أن أعبّر لهم عن إعجابي بعطر يتعطّرون به، أو حذاءٍ ينتعلونه، أو ساعة يلبسونها، أو ابتسامة يرسمونها.

تمر يومياً أمامنا العديد من الأشياء التي تلفت انتباهنا وتثير إعجابنا، لكننا اعتدنا أن ندعها تمر.. تمر من دون أن نسكُب ابتسامة، أو نُفشي إعجاباً، فتحوّلت مشاعرُنا مع مرور السنوات إلى

صحراء يباب مقفرة وجرداء، استوطنتها الأتراح، وهجرتها الأفراح. ننسى دائماً أن السعادة في العطاء. لو أسعدنا شخصاً كل يوم، لن تتذوق السعادة في داخلنا طعم النوم.

إن الأثر الكبير الذي تركته كلمات الطفلة إيمي في جارتنا يعكس أن أكثر ما يبتغيه الإنسان من الطرف الآخر هو عبارة جميلة تشيع البهجة في أنحائه وتدفعه إلى الإنجاز، وأحياناً إلى الإعجاز.

ثمة كلمة جميلة قد تنقذ يومنا، أو يوم غيرنا من الغرق في وحل الإحباط. لكننا بخيلون جداً في إشاعة مشاعرنا الإيجابية تجاه الآخرين القريبين والبعيدين، فنخسر ويخسرون، إن البخل ليس باكتناز المال فحسب، بل باكتناز كلمات الثناء وعبارات الإطراء.

تسحرُني في الغرب قدرة بعض الأشخاص الفريدة على إبداء إعجابهم بالأشياء الصغيرة. دفتر تقتنيه، أو كوب قهوة تشرب منه. في المقابل، نتردد غير مرة في إبداء إعجابنا بالعالم الجميل الذي يمور حولنا، توجد لدينا نماذج تجيد إفشاء انطباعاتها الإيجابية، لكنها استثناء، وليست قاعدة.

إذا أردنا أن تسود الكلمات الإيجابية في مجتمعاتنا فيجب أن نغرسها في آذان أطفالنا، في ترديدها أمامهم ومعهم. ما نقوم به برفقتهم سيحتفظون به جيداً في ذاكرتهم، وسيكرّسونه في حياتهم بالمستقبل. المستقبل القريب.

إن هذه السلوكيات يجب أن تكبر معنا، من الصعوبة بمكان أن نكتسبَها بين عشيّة وضُحاها. تحتاج إلى ممارسة طويلة حتى تجري على ألسنتنا جرياً.

جميعنا كنا مثل «إيمي» عندما كنّا صغاراً، عفويين وصادقين. بيد أننا تشوّهنا عندما أصبحنا كباراً. صرنا لا نمتُّ إلى أنفسنا بصلة. تفوّق علينا الغربيون لأنهم احتفظوا بأنفسهم، ولم يفقدوها في رحلة البحث عن رضا الناس.

النسخة الأصلية هي الأثمن والأكثر دهشة. علينا أن نبدأ من الآن العمل على العودة إلى ذواتنا الأصيلة التي تتّسم بالتلقائية والسماحة والسخاء. إن هذه العودة ستجعلنا نحب بعضنا أكثر، ونغفر لبعضنا أكثر. سيمتلئ عالمنا بابتسامات أجمل من التي تقتنيها «إيمي».

قبل سنوات شاهدت عامل نظافة بنغلاديشي ساخطاً من فظاظة المتنزّهين الذين كانوا يُلقون علبهم الفارغة في كورنيش الخبر، يكاد أن ينفجر من شدة الغضب. لكن سرعان ما انطفأ البركان المشتعل الذي يسكنه عندما مر بجواره شاب أنيق منحه ابتسامة وكلمة لطيفة.. فنبتت على وجهه سعادة لا تُوصف. سعادة تكاد تُلمَس.. سعادة بوسعها أن تشبعه لأيام.

جميعنا أثرياء بالكلمات الجميلة التي ندّخرها، فلمَ لا نتصدّق بها؟ إن الصدقة تُطفئ الهموم.

السيرة الذاتية للمؤلف:

عبدالله بن أحمد بن عبدالله المغلوث، كاتب صحفي سعودي، عمل في صحف عدة ومجلات عربية وسعودية مثل: «اليوم»، و«الحياة»، و«الوطن»، و«إيلاف»، و«فوربز».

صدر له:

- أرامكويون... من نهر الهان إلى سهول لومبارديا، عن العبيكان للنشر، 2008.
- الصندوق الأسود... حكايات مثقفين سعوديين، عن دار مدارك للنشر، 2010.
- كخّه يا بابا... في نقد الظواهر الاجتماعية، عن دار مدارك للنشر، 2011.
- مضاد حيوي لليأس... قصص نجاح سعودية، عن العبيكان للنشر، 2011

يكتب حالياً مقالةً أسبوعيةً في جريدة «الوطن» السعودية، كل سبت، يتناول فيها مواضيع اجتماعية، وثقافية.

طالب دكتوراه في الإعلام الرقمي في بريطانيا. حصل على درجة البكالوريوس عام 2001 من جامعة ويبر الحكومية في مدينة أوجدن، ولاية يوتاه، بتخصصي الاتصالات وتقنيات التسويق. وحصل على الماجستير من جامعة كولورادو. ونال جائزة صاحب السموّ الملكي الأمير بندر بن سلطان للتفوق العلمي. يعمل موظفاً في أرامكو السعودية منذ تشرين الأول/أكتوبر 2005، وسبق أن ترأس وحدة العلاقات الإعلامية في الشركة عام 2006م. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 2007 ترأس لجنة الإعلام في قمة أوبك الثالثة. كما ترأس لجنة الإعلام في اجتماع جدة للطاقة الذي عقد بجدة في أيار/مايو عام 2008. وقد تمت إعارته للعمل في جامعة الملك عبدالله للعلوم والتقنية في عام 2008م، إلى أن تم ابتعاثه لدراسة الدكتوراه.

الموقع الشخصي:

www.almaghlooth.com

البريد الإلكتروني

almaghlooth@gmail.com

منحني تويتر سعادة عارمة مع كل تغريدة أكتبها.
وأخرى أتصفّحها.
سعادة نقلتني من ضفة الحزن إلى السعادة.
غيّر تويتر نظرتي تجاه الكثير من الأمور.
جعلني أكثر شجاعة على البوح.
وأكثر إقبالاً على الاختصار.
وأكثر بعداً من الاحتضار.


ISBN 978-614-429-002-6

